ملفات مجلة الحرية

الحرية: مجلة فكرية مغربية - فصلية

رقم الإيداع القانوني: 1995/162
رقم ملف الصحافة: 1995/44
البريد الإلكتروني للمجلة: revuealhoria@gmail.com
البريد الإلكتروني لمدير المجلة: hilalmed@gmail.com

رقم الملف: 4 - 2020

ماركس
الثورة
واليسار

محمد الهلالي

الفهرس

- **حوار مع كارل ماركس**
(مؤسس الاشتراكية الحديثة) 03
- **كيف صار الشاب ماركس ثوريا؟**
"الفلسفة والثورة من كانط إلى ماركس"
حوار مع ستاذيس كوفيلاكيس 28
- **حول مفهوم الثورة**
(كيف نعيد لمفهوم الثورة حدته وعنفوانه؟)
جورج لابيكا 37
- **اليَسارُ العَالمِيُ بيْنَ فشَل الأمَمِياتِ**
والبَحْثِ عنِ المَرْجِعيّةِ 62
- **مَارْكس وَصِراعَاتُ الْورَثةِ** 87
- **نقدُ الصّهيونية وتمْييزِها عنْ اليَهوديّة**
(حوارٌ ما بين أبراهامْ السّرفاتي
وإيمانويل لِيفينْ) 112

حوار مع كارل ماركس

(مؤسس الاشتراكية الحديثة)

تقديم للحوار من طرف بيرت أندرياس:

ظل هذا الحوار مع ماركس غير معروف لمدة طويلة حتى أعاد اكتشافه الباحث الأمريكي لويس لازاروس (Louis Lazarus). ولا توجد أية إشارة لهذا الحوار في الرسائل التي تبادلها ماركس مع إنجلز ما بين ديسمبر 1878 وبداية أبريل 1879. لكن ربما توجد آثار له في الرسائل التي تبادلها ماركس وإنجلز مع أشخاص آخرين. تستمد أصالة الحوار من مضمونه الذي يتطابق مع ما كتبه ماركس وإنجلز في هذه المرحلة التي أجريَ فيها.

تأسست جريدة شيكاغو تربيون سنة 1846. وكانت مؤيدة للجمهوريين آنذاك. كان رئيس تحريرها، جوزيف ميدل (Joseph Medill)، صديقا لأبراهام لنكلن. وكان عدد النسخ المطبوعة من هذه الجريدة هو الأكثر ارتفاعا آنذاك مقارنة

ببقية الجرائد (25000 نسخة من طبعة الصباح التي نشر فيها الحوار، وأكثر من 10000 نسخة في طبعة المساء، وكان يصل عدد نسخ طبعة منتصف النهار الأسبوعية إلى 50000 نسخة). نشر الحوار في الأسبوع الأول من شهر ديسمبر سنة 1878. ولقد اجري الحوار بالإنجليزية.

نص الحوار:

لندن بتاريخ 18 ديسمبر 1878: يقيم كارل ماركس، مؤسس الاشتراكية الحديثة، في ڤيللا صغيرة بحي يوجد في الشرق الغربي للندن، وهو حي هافيرستوك هيل (Haverstock Hill). ولقد ابعد سنة 1844 من وطنه ألمانيا لأنه نشر نظريات ثورية، ومنذ ذلك الوقت وهو يعيش في المنفى. وعاد إلى بلده سنة 1848 لكنه طرد منه بعد شهرين من عودته إليه. ثم استقر بعد ذلك في باريس حيث تعرض للإبعاد من جديد منها بعد سنة من إقامته فيها، بسبب أفكاره السياسية. ومنذ ذلك الحين، جعل من لندن مقره العام. ولم تتوقف قناعاته منذ اليوم الأول، عن أن تكون مصدرا لصعوبات عديدة، كما أنها لم تمكنه أبدا من حياة مريحة حسب ما هو واضح من هيئة مسكنه. ولقد دافع ماركس طيلة هذا الوقت عن قناعاته بإصرار أكيد يرتكز على اليقين بصحتها. ومهما كنتُ معارضا لنشر أفكاره،

فينبغي أن نعترف أن نكران هذا الرجل لذاته، وقد بلغ سنّا موقرا، يستحق نوعا من الإجلال.

التقيتُ بالدكتور ماركس مرتين أو ثلاث مرات، ولقد استقبلني في مكتبه، كتاب في إحدى يديه وفي الأخرى سيجارة. ويبدو أن سنه يتجاوز الستين سنة(1). إنه رجل قوي البنية الجسدية، مربع الكتفين، ويجلس مستقيما، له رأسُ مثقف وتصرفات يهودي واسع الاطلاع، شعر رأسه ولحيته طويل ورمادي اللون. حاجباه منفوشان يلقيان بظلالهما على عينيه السوداوين المتقدتين. وبما أنه لا يميل إلا قليلا جدا للاحتراس، فإنه يخصص للأجانب بصفة عامة أفضل استقبال. ومع ذلك، فهذا الألماني المحترم، كما هو واضح، والذي يستقبل الزائر، لا يقبل الحديث مع أحد أبناء وطنه إلا إذا قدم له هذا الأخير رسالة توصية. لما ولجنا المكتبة، وثبّت ماركس نظارته أحادية الزجاجة، حتى تبدو عليه هيئة المثقف، تخلى عن تحفظه الذي التزم به إلى حدود ذلك الحين. وهكذا بسط أمام الزائر المفتون معرفته بالبشر وبالأشياء في جميع أنحاء العالم. وإبان المحادثة، وبعيدا عن أن يكون شخصا ضيق الأفق، يتطرق للعديد من المواضيع بعدد المجلدات الموجودة في رفوف مكتبته. يمكن تكوين فكرة عن ذلك انطلاقا من الكتب التي يقرأها. وسيكون القارئ فكرة عن الموضوع لما اخبره بما كشفته لي نظره ألقيتها على تلك الرفوف: شكسبير

Shakespeare، ديكنز Dickens، ثاكيراي Thackeray، موليير Molière، راسين Racine، مونتينيْ Montaigne، باكون Bacon، غوته Goethe، فولتير Voltaire، بين Paine، مجموعة نصوص إدارية (الكتب الزرقاء)، كتب عن الإنجليزية، أمريكيون وفرنسيون، مؤلفات سياسية وفلسفية بالروسية والألمانية والإسبانية والإيطالية إلخ... ولكم كانت مفاجأتي كبيرة لما كشفت لي حواراتي معه أن ماركس كان يعرف معرفة عميقة المشاكل الأمريكية إبان العشرين سنة الأخيرة. عن الدقة الفريدة التي اتسمت بها الانتقادات التي وجهها لنظامنا التشريعي، سواء تعلق الأمر بنظام الوحدة أو بنظام الولايات، ولّد عندي انطباعا مفاده أنه حصل على معلوماته من مصادر جدّ عليمة(2). وبالرغم من ذلك، فإن هذه المعرفة لا تنحصر في أمريكا ولكنها تشمل أيضا كل أوروبا.

وحين يتطرق لموضوعه المفضل الذي هو الاشتراكية، فإنه، وخلافا لما يُنسبُ إليه عموما، لا يطلق العنان لخطب عنيفة ميلودرامية. إنه يظل في حدود خططه الطوباوية المتعلقة "بتحرر النوع البشري" باتزان وحيوية يبرهنان على أنه مقتنع بأن نظرياته ستتحقق يوما ما في القرن القادم إن لم تتحقق في هذا القرن.

ربما يعرف الناسُ الدكتور ماركس في أمريكا باعتباره على وجه الخصوص مؤلفا لكتاب الرأسمال ومؤسسا للأممية أو

على الأقل باعتباره أحد أعمدتها الرئيسيين. وسوف يقدم الحوار التالي تدقيقا لأفكاره حول هذه الجمعية في صيغتها الحالية. وأقدم في البداية بعض المقتطفات من القانون الأساسي للأممية المنشور سنة 1871 من طرف المجلس العام، وهي مقتطفات تمكن من تكوين حكم غير متحيز بخصوص موضوع وهدف الأممية(*).

إبان زيارتي للدكتور ماركس، أشرت إلى أن ج.س. بانكروفت دافيس J.C. Bancroft Davis ألحق بتقريره الرسمي لسنة 1877 برنامجا بدا لي أنه وإلى الحدود الآن هو العرض الأكثر وضوحا والأكثر اختصارا لأهداف الاشتراكية(3)، فأجابني بأن هذا البرنامج تم استخلاصه من محضر المؤتمر الاشتراكي بغوتا، المنعقد في ماي سنة 1875، وأن الترجمة مليئة بالأخطاء. ولقد قبل الدكتور ماركس تصحيح تلك الترجمة وأقدم هنا النص كما أملاه علي(4):

"1. الاقتراع العام، المتساوي، المباشر، السري والإجباري بالنسبة لجميع المواطنين البالغين على الأقل 20 سنة من عمرهم، وبالنسبة لجميع الانتخابات العامة والجماعية. وستجرى الانتخابات يوم احد أو يوم عطلة.

2. الشعب هو مصدر التشريع المباشر. ويتم الاستفتاء عل الحرب والسلم.

3. ينبغي تسليح الأمة وتعويض الجيش الدائم بميليشيا شعبية.

4. إلغاء جميع القوانين المتعلقة بحالة الاستثناء وخصوصا تلك المتعلقة بالصحافة والاجتماعات والتكتلات، وبصفة عامة كل القوانين التي تحد من حرية التعبير عن الرأي وحرية التفكير والدراسة.

5. إصدار أحكام العدالة باسم الشعب، ومجانية العدالة.

6. التعليم العام والمتساوي للشعب من طرف الدولة. إجبارية التمدرس. مجانية التعليم في جميع المؤسسات التعليمية(5).

7. توسيع مجال الحقوق والحريات إلى أقصى حد ممكن بخصوص المطالب المذكورة أعلاه.

8. سن ضريبة وحيدة ومتدرجة على الدخل لصالح الدولة والجماعات المحلية تحل محل جميع الضرائب غير المباشرة وخصوصا تلك التي تثقل كاهل الشعب.

9. الحق غير المحدود في التكتلات.

10. يوم عل عادي في علاقة مع حاجيات المجتمع. منع العمل يوم الأحد.

11. منع عمل الأطفال ومنع عمل النساء لما تؤدي طبيعة هذا العمل إلى إلحاق الضرر بالصحة وبالأخلاق.

12. سن قانون يهدف إلى حماية حياة وصحة العمال. المراقبة الصحية لمساكن العمال. رصد العمل داخل المعامل والمشاغل والورشات وكذا العمل في المنازل من

طرف موظفين ينتخبهم العمال. سن قانون يحدد المسؤوليات بوضوح.

13. يتضمن عرض براكفورت دافيس بندا آخر هو البند 14، وهو الأهم من بين جميع البنود، والذي ينص على ما يلي: "إقامة تعاونيات اشتراكية للإنتاج بمساعدة الدولة تحت المراقبة الديمقراطية للشغيلة".

ولما سألت الدكتور ماركس عن سبب إغفاله لهذا البند أجابني قائلا:

ماركس: في مرحلة انعقاد مؤتمر غوتا سنة 1875، كانت الاشتراكية الديمقراطية منقسمة إلى قسمين: كان أنصار لاسال Lassalle يشكلون أحد الجناحين، أما الجناح الآخر فقد تبنى بشكل عام برنامج الأممية وكان يسمى بحزب "الأيسناخيين" (نسبة لمدينة أيسناخ Esenach). فالبند الثاني عشر -الذي يتعلق الأمر به هنا- لم يكن متضمنا في البرنامج بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكنه حُشِرَ في المقدمة العامة كتنازل للاساليين، ولم يذكر بعد ذلك, ولم يقل براكفورت دافيس أن هذا البند أدخل في البرنامج كوسيلة لتسوية بدون أية أهمية خاصة، ولكنه يركز عليه بجدية كبيرة كما لو أن الأمر يتعلق بنقطة أساسية(7).

سؤال: ولكن ألا يعتبر الاشتراكيون أن الهدف الكبير لحركتهم هو الانتقال من وسائل العمل الخاصة إلى الملكية الاجتماعية الجماعية؟

ماركس: بالتأكيد. نحن نقول أن هذا الهدف سيكون نتيجة العمل النضالي للحركة الاشتراكية، فالأمر إذن متعلق بالزمن، والتربية، وبتطور التشكيلات الاجتماعية المتطورة.

سؤال: هل هذا البرنامج قابل للتطبيق في ألمانيا وفي بلد أو بلدين آخرين فقط؟

ماركس: إن استخلاص النتائج من برنامج معين فقط سيعني تجاهل أنشطة الحركة. فالعديد من نقط هذا البرنامج لا معنى لها خارج ألمانيا. فلاسبانيا وروسيا وإنجلترا وأمريكا برامجها الخاصة، والتي تمت ملاءمتها مع مشاكلها الخاصة. والنقطة الوحيدة المشتركة بن هذه البرامج هي الهدف النهائي.

سؤال: وهل هذا الهدف النهائي هو السلطة العمالية؟

ماركس: إنه تحرر الشغيلة.

سؤال: وهل يولي الاشتراكيون الأوروبيون الأهمية اللازمة للحركة الأمريكية؟

ماركس: أجل. هذه الحركة هي نتيجة طبيعية لتطور هذا البلد. لقد قيل إن الحركة العمالية تم استيرادها إليه من الخارج. ولما تعذر على الحركة العمالية في إنجلترا قبل خمسين سنة أن تحقق أية مكتسبات تم ادعاء نفس الأمر. وتم ذلك قبل بروز مسألة الاشتراكية بكثير. أما في أمريكا فالحركة العمالية اكتسبت، ابتداء من سنة 1857، أهمية أكبر.(8) ولقد حققت النقابات المحلية تقدما ملحوظا، ثم

قامت نقابة مركزية بتجميع مختلف الهيآت المهنية، وبعد ذلك ظهر للوجود "الاتحاد الوطني للعمال". هذا التقدم التدريجي عبر الزمن يبين أن الاشتراكية ولدت في أمريكا بدون أي سند خارجي، وأنها ولدت بشكل خالص وبكل بساطة من تمركز الرأسمال ومن التغير الذي حدث في العلاقات ما بين العمال وأرباب العمل.

سؤال: ما هو النجاح الذي حققته الاشتراكية إلى حدود الآن؟

ماركس: حققت الاشتراكية أمران: برهن الاشتراكيون على وجود صراع عام بين الرأسمال والعمل في كل مكان، وباختصار، برهنوا على الطابع العالمي لهذا الصراع. فعلموا على تحقيق وئام ما بين العمال في مختلف البلدان. وبما أن عالمية الرأسماليين هي في نمو متزايد باستمرار فإن مسألة الوئام بين العمل تعتبر ضرورية. إن توظيف عمال أجانب لاستعمالهم ضد عمال البلد الذي يوجدون فيه هي عملية لا تتم فقط في أمريكا وإنما تتم أيضا في إنجلترا وفرنسا وألمانيا. لقد خلقت روابط أممية بشكل مباشر ما بين عمال مختلف البلدان. وهذا ما برهن على أن الاشتراكية لم تكن أبدا مشكلا محليا، وإنما كانت مشكلا عالميا ينبغي حله أيضا بعمل عالمي للعمال. لقد وجدت الطبقة العاملة نفسها تلقائيا في وضعية حركية نضالية دون أن تعرف إلى أين ستقودها هذه الحركة النضالية. فليس

الاشتراكيون هم الذين أوجدوا هذه الحركية، لكنهم شرحوا للعمال طابعها وأهدافها.

سؤال: أي قلب النظام الاجتماعي السائد؟

ماركس: في هذا النظام، الرأسمال والأرض هما في ملك المقاولين، بينما العامل لا يملك إلا قوة عمله، وهو مجبر على بيعها مثلما تباع السلعة. نؤكد أن هذا النظام لا يشكل إلا مرحلة تاريخية، وأنه سيختفي ويترك مكانه لنظام اجتماعي أرقى منه. نلاحظ وجود تقسيم طبقي للمجتمع في كل مكان. فالتضاد ما بين هذين الطبقتين لا ينفصل عن تطور الموارد الصناعية في البلدان المتحضرة. ومن منظور اشتراكي، فإن الوسائل التي ستستعمل في التغيير الثوري للمرحلة التاريخية الحالية موجودة سلفا. وفي العديد ن البلدان، حققت منظمات سياسية نهضتها انطلاقا من النقابات. في أمريكا الشمالية، من البديهي اليوم أن هناك حاجة لحزب عمالي مستقل. لم يعد بوسع العمال الثقاة بالسياسيين. فالمضاربون والأحزاب استولوا على الهيآت التشريعية فصارت السياسة مهنة. وليست هذه حالة أمركا فقط، ولكن الشعب هناك أكثر تصميما من شعوب أوروبا. فالأوضاع تنضج هناك بسرعة، ولا يتم التطرق للمشاكل بكيفية مباشرة وإنما تُواجه المشاكلُ مباشرة.

سؤال: كيف تفسرون النمو السريع للحزب الاشتراكي في ألمانيا؟

ماركس: عرف الحزب الاشتراكي الحالي ولادة متأخرة، كما أن الاشتراكيين الألمان لم يكن عليهم أن يقطعوا علاقاتهم مع الطوباويين الذين صارت لهم أهمية معينة في فرنسا وإنجلترا. فالألمان –أكثر من الشعوب الأخرى- ميالون للنظرية واستخلصوا خلاصات عملية من التجارب السابقة. ولا تنسوا بالخصوص أن الرأسمالية الحديثة، في ألمانيا وخلافا للبلدان الأخرى، هي مسألة جديدة كليا. وطرحت في جدول الأعمال قضايا نسيت إلى حد ما في فرنسا وإنجلترا. فالقوى السياسية الجديدة التي خضعت لها شعوب هذه البلدان، وجدت في مواجهتها، في ألمانيا، طبقة عاملة مقتنعة سلفا بالنظريات الاشتراكية. وهكذا تمكن العمال من بناء حزب سياسي مستقل تقريبا في اللحظة التي شيدت فيها الصناعة الحديثة في بلدهم.(9) لهم ممثلوهم الخاصون بهم في البرلمان. وبما أنه لا يوجد أي حزب معارض للسياسة الحكومية، فإن هذا الدور، دور المعارضة، يقوم به الحزب العمالي. وستقود عملية إعادة سرد تاريخ الحزب إلى مدى بعيد جدا، ولكن يمكنني أن أقول لكم الشيء التالي: لو لم تكن البرجوازية الألمانية مكونة من جبناء كبار، على عكس البرجوازيتين الأمريكية والإنجليزية، لكانت قد عارضت النظام سياسيا منذ وقت بعيد.

سؤال: كم عدد اللاساليين (أنصار فردناند لاسال) في صفوف الأممية؟

ماركس: لا وجود للاساليين كحزب. نجد بيننا بالطبع بعض أنصار لاسال، لكن عددهم قليل جدا. منذ مدة ليست بالقصيرة، وبعد مرحلة رد الفعل التي تلت سنة 1848، اعتقد لاسال أن أفضل وسيلة لتنشيط الحركة العمالية تكمن في الثناء على تعاونية الإنتاج العمالية. وكان يريد بذلك حث العمال على الممارسة النضالية. كان ذلك في نظره وسيلة بسيطة لبلوغ الهدف الواقعي للحركة العمالية، وبحوزتي رسائل للاسال تؤيد هذا التوجه.(10)

سؤال: كان الأمر إذن ترياقا لاعتبارات معينة.(11)

ماركس: بالضبط. ذهب للقاء بسمارك ليعرض عليه نواياه. وشجع بسمارك تطلعات لاسال بكل الطرق التي يمكن تصورها.

سؤال: ما الذي كان يخفيه بسمارك؟

ماركس: كان يريد استعمال الطبقة العاملة ضد البرجوازية التي خرجت من ثورة 1848.

سؤالك يقال أنكم رأس ومرشد الحركة الاشتراكية وأنكم تتحكمون، انطلاقا من منزلكم، في المنظمات الثورية إلخ... هل هذا صحيح؟

ماركس: أعرف ذلك. إنه أمر عبثي، لكن له جوانب هزلية. وفي هذا السياق، احتج بسمارك، بعد مرور شهرين على

محاولة اغتيال الإمبراطور غيوم من طرف ماكس هودل (Max Hodel)، في جريدة Norddeut sche zeitung، على تحالف يعتقد أنني عقدته مع بيك (Beckx) جنرال اليسوعيين، ويرى أننا نحن السبب في عدم قدرته على هزم الحركة الاشتراكية.(12)

سؤال: لكن "منظمتكم الأممية" بلندن هي فعلا التي تقود الحركة؟

ماركس: كانت الأممية مفيدة في مرحلة معينة، لكنها استنفذت دورها ولم تعد موجودة. قامت بحركة نضالية وقادت الحركة الاشتراكية. لكن نمو هذه الأخيرة إبان هذه السنين الأخيرة جعل الأممية بدون أية قيمة. عرفت عدة جرائد النور في مختلف البلدان، وهي جرائد تربطها علاقات ودية فيما بينها. وهذا هو الرابط الوحيد الذي تحافظ عليه أحزاب مختلف البلدان فيما بينها.(12 مكرر) لقد أسست الأممية قبل كل شيء بهدف تجميع العمال وإقناعهم بأنه من المفيد تجميع العمال من جنسيات متنوعة في منظمة واحدة. لكن مصالح الأحزاب العمالية ليست متطابقة في مختلف البلدان. فطيف قائد الأممية الذي يوجد مقره في لندن هو محض افتراء. صحيح أننا أعطينا تعليمات لمنظمات عمالية لما كانت الأممية قوية. وكنا مجبرين على طرد بعض الفروع من نيويورك ومن بينها فرع تحتل فيه السيدة وودهيل (Woodhull) مكانة قيادية. ولقد حدث هذا سنة

1871. كان هناك العديد من السياسيين الأمريكيين الذين كانوا مستعدين طواعية لجعل الحركة العمالية قضيتهم الشخصية. لا أريد أن اذكر إي اسم، فالاشتراكيون الأمريكيون يعرفونهم جيدا.

سؤال: تُنسبُ إليكم، ولأتباعكم أيضا، العديد من الأقوال النارية ضد الدين، وبكل تأكيد، ستسعدون بتحطيم جذري لهذا النظام؟

ماركس: لا نجهل أنه من الحماقة اتخاذ تدابير عنيفة ضد الدين. وحسب تصوراتنا سيختفي الدين لما تتقوى الاشتراكية. سوف يؤدي التطور الاجتماعي حتما إلى تيسير هذا الاختفاء والذي ينبغي على التعليم أن يقوم بدور كبير في إنجازه.

سؤال: قال رجل الدين جوزيف كوك(13) من بوسطن، إبان إلقائه لإحدى المحاضرات مؤخرا، أنه يجب القول لكارل ماركس إن تحقيق إصلاح في مجال الشغل أمرر ممكن بدون ثورة دموية في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي بريطانيا العظمى، وربما في فرنسا أيضا. بينما ينبغي سكب الدماء لتحقيق ذلك الإصلاح في ألمانيا وروسيا، وفي إيطاليا والنمسا.

ماركس: لقد سمعت بالسيد كوك. وهو لا يعرف شيئا كثيرا عن الاشتراكية. فليس من المجدي أن يون المرء اشتراكيا ليرى ويتوقع بالفعل حدوث ثورات دموية في روسيا(14)،

وألمانيا والنمسا، وربما في إيطاليا، إذا استمر الإيطاليون في التقدم نحو الاتجاه الذي هو اليوم اتجاههم. ففي هذه البلدان، يمكن أن تحدث أحداث تشبه الثورة الفرنسية. يتعلق الأمر هنا ببديهية في نظر كل مطلع على الوضعية السياسية. لكن هذه الثورات سوف تُنجزُ من طرف الأغلبية. لن تُنجز الثورات بعد الآن من طرف حزب معين، ولكنها ستُنجزُ من طرف الأمة كلها.

سؤال: لقد استشهد رجل الدين بمقطع من رسالة يعتقد أنكم أرسلتموها سنة 1871 إلى الكومونيين في باريس (نسبة لكومونة أو عاميّة باريس) حيث نقرأ ما يلي: "عددنا اليوم يبلغ أكثر من ثلاثين مليون فرد. ولكن بعد عشرين سنة سيكون عددنا خمسين مليون، أو ربما مائة مليون فرد. وآنذاك سيكون العالم ملكا لنا، بما أن الانتفاضة لن تكون فقط في باريس وليون ومارسيليا، ولكنها ستكون أيضا في برلين وميونيخ ودِرسْدِن ولندن ولفربول ومانشستر وبروكسيل وسان بتروسبورغ ونيويورك، أي باختصار، سينتفض العالم بأسره ضد الرأسمال الممقوت. وفي مواجهة هذه التمردات الجديدة التي لم يعرف لها التاريخ مثيلا بعد. سوف يتبدد الماضي مثل كابوس رهيب: اشتعال الاحتجاج الشعبي الذي سيبزغ من مائة مكان في نفس الوقت سوف يقضي على كل شيء بما في ذلك ذكرى الماضي" فهل تعترفون بكتابتكم لهذه الأسطر؟

ماركس: لم أكتب ولا كلمة واحدة من كل هذا الكلام. لم يسبق لي أبدا أن كتبت مثل هذا الكلام العبثي الميلودرامي. فأنا أزن بميزان النضج كل ما أكتبه. لقد تم نشر هذا الكلام باسمي في جريدة الفيغارو. ففي هذه المرحلة، كان يتم ترويج مئات الرسائل من هذا النوع. وراسلتُ التايمز في لندن لتكذيب ذلك. لكن لو أردت تكذيب كل ما يقال ويُكتبُ باسمي، فينبغي علي تأجير عشرين سكرتيرا.

سؤال: لكنكم دافعتم في كتاباتكم عن كومونة باريس؟

ماركس: لقد فعلتُ ذلك بكل تأكيد جوابا على ما كتب عنها في افتتاحيات عدة جرائد. ومع ذلك، فإن بعض المراسلين الباريسيين كذّبوا بما فيه الكفاية في الصحافة الإنجليزية مزاعم تلك الافتتاحيات المتعلقة بهذا الإسراف وغيره...

فكومونة باريس لم تعدم إلا حوالي ستين شخصا. أما الماريشال ماك ماهوم (Mac Mahom) وجيشه من الجزارين فقد قتلوا أكثر من ستين ألفا. ولم تتعرض أية حركة لهذا الكم الهائل من الوشايات مثل التي تعرضت له كومونة باريس.

سؤال: هل يعتقد الاشتراكيون أن الاغتيال وسفك الدماء ضرورة لتحقيق مبادئهم؟

ماركس: لم تولد أية حركة كبيرة دون سفك الدماء. فالولايات المتحدة الأمريكية لم تحصل على استقلالها إلا

بعد سفك الدماء. كما أن نابليون الثالث غزا فرنسا من خلال عمليات دموية كما أنه هزم بنفس الطريقة. فإيطاليا وإنجلترا وألمانيا والبلدان الأخرى تقدم مجموعة أمثلة من نفس النوع. أما بخصوص الاغتيال السياسي، فليس هذا أمرا جديدا نتعرف عليه لأول مرة. لقد حاول أورسيني (Orsini) بدون شك قتل نابليون الثالث، لكن الملوك قتلوا أعدادا من الناس أكثر مما فعل أي شخص آخر. فاليسوعيون ارتكبوا عدة عمليات قتل ونفس الشيء فعله طهرانيو كروميل (Cromwell). لقد حدث كل ذلك قبل أن نسمع عن الاشتراكيين. ومع ذلك، نحملهم اليوم مسؤولية كل محاولة اغتيال ضد الملوك أو رجال الدولة. فموت إمبراطور ألمانيا لازالت موتا مأسوفا عليها من طرف الاشتراكيين. فلقد كان نافعا جدا في المكان الذي كان يحتله، وقام بسمارك بالشيء الكثير لصالح حركتنا أكثر مما فعل أي رجل دولة آخر، لأنه دفع الامور لتصل إلى حدها الأقصى.(15)

سؤال: ما رأيكم في بسمارك؟

ماركس: قبل سقوط نابليون الثالث، كان يُعتبرُ عبقريا، وبعد سقوطه اعتُبر أحمقا. وسوف يحصلُ لبسمارك مثل ما حصل لنابليون الثالث. فبمجرد توحيد ألمانيا، شرع بسمارك في إقامة نظام استبدادي. من لا يرى ما الذي يريدُ تحقيقه؟ فمناوراته الجديدة ليست إلا انقلابا مقنعا، لأن

بسمارك سيفشل في ذلك. لقد احتج الاشتراكيون الألمان والفرنسيون ضد حرب 1870، مؤكدين على أن الأمر يتعلق بحرب من أجل الاستيلاء على الحكم. ولقد قالوا مسبقا في بياناتهم للشعب الألماني إنه إذا سمح بتغيير هذه الحرب التي تسمى بالحرب الدفاعية إلى حرب غزو فسوف يعاقب من خلال إقامة استبداد عسكري ومن خلال القمع العنيف للجماهير الكادحة. قام الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني في هذه المرحلة بعقد عدة اجتماعات، كما نشر عدة بيانات عبر فيها عن مساندته لسلم محترم مع فرنسا. لكن الحكومة الألمانية قامت مباشرة بمتابعات ضد الحزب الذي سجنت معظم قياداته. وبالرغم من كل ذلك، كان نواب الحزب هم الوحيدون في الرايشتاخ الذين تجرؤوا على الاحتجاج بحدة ضد إلحاق إقليم فرنسي بألمانيا بالقوة. لقد فرض بسمارك مع ذلك سياسته بالعنف. وتحدث الناس عن عبقرية بسمارك. كانت الحرب قد انتهت، وبما أن بسمارك لم يكن بوسعه القيام بغزوات جديدة، وإنما كان عليه اختراع أفكار أصيلة، فلقد ارتكب خطأ موجعا.(16) فقد الشعب إيمانه في بسمارك، وتدنت شعبيته تدنيا كبيرا. لقد فرض –اعتمادا على دستور مزعوم، وابتغاء لتحقيق خططه العسكرية والمتعلقة بالتوحيد- فرض ضرائب ثقيلة على الشعب إلى أن يرفض الشعب قبول ذلك، ويحاول الآن إجباره على قبول ذلك بدون

دستور. ولكي يتمكن من الاستمرارية في إيذائه الدامي كما يريد شرع في التلويح بشبح الاشتراكية، وبذل كل ما في وسعه(17) لحدوث انتفاضة شعبية.

سؤال: هل تتوصلون بتقارير من برلين بشكل منتظم؟

ماركس: أجل، أنا مطلع بشكل جيد على الأوضاع هناك من طرف أصدقائي. برلين هادئة تماما. وبسمارك خاب أمله. لقد اصدر قرارا بمنع ما يقارب أربعين قائدا من الإقامة في برلين، من بينهم خمسة نواب هم: هاسيلمان (Hasselmann) وفريتزشه (Fritzshe)، وكذلك راكاو (Rackow)، بومان (baumann) وأوير (Auer) العاملين في فري بريس (Freie presse).(18) هؤلاء الأشخاص حثوا عمال برلين على التزام الهدوء، وهذا أمر يعرفه بسمارك. إنه يعرف كذلك وبشكل جيد أنه يوجد في برلين 75000 جنديا مستعدين للموت جوعا. ويعتقد جازما أنه بمجرد ما يتم إبعاد قادة الحركة الاشتراكية سيندلع التمرد وهو ما سيبرر سفك الدماء.(19) وآنذاك سيتمكن من اعتقال إمبراطورية ألمانيا بأسرها. وبإطلاق العنان لسياسته العسكرية المتطرفة، ولن تبقى هناك حدود لتحصيل الضرائب. لم يحدث أي إخلال بالنظام إلى حد الآن، لذلك يرى بسمارك المندهش مما يقع أن عليه لوم نفسه من بين جميع رجال الدولة الألمانية.

هوامش:

1) كان عمر ماركس آنذاك واحدا وستين سنة.

2) تطرق ماركس في رسالة بعثها إلى دانييلسن (Danielson) بتاريخ 10 أبريل 1879 لـ"مجموع المواد التي توصلت بها ليس فقط من روسيا، ولكن أيضا من الولايات المتحدة الأمريكية إلخ...". وفي 15 نوفمبر 1878، أسرّ إلى دانييلسن نفسه بتشخيص يتعلق بالتطور الاقتصادي للولايات المتحدة الأمريكية، كان ماركس يحصل على معلوماته حول الإدراة الأمريكية من "مصادر جد مطلعة".

3) كان جون شاندلر بانكروفت دافيس (John Chandler Bancroft Davis) وزيرا غير محدود الصلاحية في برلين من سنة 1874 إلى سنة 1877. ولقد تضمن تقريره الرسمي المؤرخ في 10 فبراير 1877، والذي بعثه لوزير الشؤون الخارجية الأمريكية آنذاك، تضمن عرضا حول الاشتراكية الألمانية آنذاك هاملتون فيش Hamilton Fish)، أنظر:

United States. State Department. Papers relating to Foreign Relations of the United States, Washington, 1877, pp. 175-80.

4) هذا النص متطابق مع بروتوكول سنة 1875، ويحتفظ، بسبب ذلك، بترقيم مقالات البرنامج الخاص بالأصل الألماني الذي تعامل معه نص الحوار التالي بروح نقدية واضحة.

5) تجنب ماركس المطلب الأخير المعبر عن هذا البند: "الحرية التي يعبن على أنها أمر خاص". لقد رفض ماركس في "تفسيراته الهامشية" لبرنامج الحزب العمالي الألماني هذا المطلب باعتباره "برجوازيا"، وطالب الحزب بالتعبير عن إرادته في "تحرير الوعي من الدين كقوة مكونة من أشباح".

6) بعد فقرتين تمهيديتين قدم برنامج غوتا ستة مطالب (من 1 إلى 6) مترابطة ذات طابع عام، كما قدم ثمانية مطالب مترابطة أيضا ينبغي تلبيتها في المجتمع الحالي. لكن ينقص المطلب الأخير من هذه المطالب الثمانية (والمتعلق بالتدبير الذاتي الصارم لكل فئات الإسعاف والنجدة المتبادلة).

7) لا يقدم التقرير المذكور في الهامش 20 ترجمة لبنود برنامج غوتا، وإنما يقدم فقط تلخيصا مركزا لهذا البرنامج مكونا من اثني عشر نقطة مختصرة.

8) تسببت الأزمة الاقتصادية التي حدثت سنة 1857 في الولايات المتحدة الأمريكية في بطالة لم تعرفها البلاد من قبل، وسعت مختلف النقابات ابتداء من سنة 1858، بقوتها المتنامية وبنجاح في أغلب الأحيان، إلى الرفع من مستوى الأجور التي انخفضت إبان الأزمة.

9) أنظر دراسة إنجلز التي شرع في صياغتها سنة 1888 بخصوص دور العنف في التاريخ، والتي جاء فيها ما يلي: "تكونت الصناعة الكبرى، وكذا البرجوازية والبروليتاريا في ألمانيا في مرحلة كانت فيها البرجوازية والبروليتاريا قادرتين على خوض المعارك السياسية" (Werke, XXI, p. 454).

10) أكد ماركس ولاسال معا أن تواصلهما عبر الرسائل تراجع سنة 1862. لا نعثر على أية إشارة في رسائل لاسال إلى ماركس حول ما يقدمه هذا الأخير على أنه اعتبار تكتيكي: فلاسال أطلق حملته التحريضية في 12 أبريل 1862 بخطاب نشر بعد شهر تقريبا على إلقائه

تحت عنوان "برنامج عمالي"، ولم يتطرق فيه بعد للجوء لمساعدة الدولة بالنسبة للتعاونيات الإنتاجية العمالية. لقد ظهر هذا المطلب لأول مرة بقلم لاسال في "جواب للعموم" (Offnes Antwortschreibe) بتاريخ فاتح مارس 1863، من الممكن أن يكون لاسال قد قدم هذه التفسيرات بعد قطيعته التكتيكية مع ماركس، في رسالة إلى شخص آخر يعرفه ماركس.

11) يصف ماركس، في نقده لبرنامج غوتا، هذا المطلب باعتباره "دواء شاملا".

12) كان بيير جون بيك (Pierre-Jean Beckx)، منذ سنة 1853، يحتل مرتبة جنرال في نظام اليسوعيين، وفي أكتوبر-نوفمبر سنة 1877، تحدثت جريدة (Norddeutsche Allgemeine Zeitung) الموالية لبسمارك عن "علاقات ما بين ماركس وبيك".

12 مكرر) كتب إنجلز، في هذا الاتجاه، إلى بيكر (J. Ph. Becker)، بتاريخ 10 فبراير 1882 ما يلي: "وتستمر الأممية فضلا عن ذلك في الوجود. لقد تحققت العلاقة ما بين الأحزاب الثورية من جميع البلدان، في حدود إمكانية تحققها، وشكلت كل جريدة اشتراكية مركزا عالميا. وتنطلق من جنيف إلى لندن وباريس وبروكسيل وميلانو خيوط تتقاطع في جميع الاتجاهات.

13) كان رجل الدين جوزيف كوك (Joseph Cook)، الذي درس في جامعة هارفارد، يلقي محاضرات في الولايات المتحدة الأمريكية منذ سنة 1873، وكان يعرض تبسيطات مهمة في محاضراته التي كان يسعى من خلالها للبرهنة على أن الدين المسيحي والكتاب المقدس منسجمان مع العلم كل الانسجام. ولقد نشرت هذه المحاضرات في مرحلة إجراء هذا الحوار مع ماركس تحت عنوان "الشغل" (بوسطن، 1879) و"الاشتراكية" (بوسطن، 1880).

14) أنظر هذا المقطع من رسالة لإنجلز كتبها في 21 مارس 1879 بخصوص قوانين الاستثناء في ألمانيا، والتي نشرتها الجريدة الإيطالية في 30 مارس: "الاغتيال السياسي في روسيا هو الوسيلة الوحيدة التي بحوزة السياسيين الأذكياء والعقلاء والذين يتحلون بالحزم للدفاع عن أنفسهم ضد أعوان الاستبداد غير المعهود". (Werke, XIX, p. 149).

15) أنظر: حديث إنجلز عن سياسة بسمارك الحربية المتطرفة في مقال تحت عنوان: "ضجة الأحذية في الكواليس" والذي نشر في جريدة (Voltsstaat) بتاريخ 23 أبريل 1875 والذي جاء فيه: "لن يتزعزع النظام إلا من الداخل وصولا إلى القمة (...) ولن يسقط النظام ذات يوم بشكل نهائي إلا بسبب نتائجه الحتمية. وكلما اتسعت هذه الارتجاجات كلما كان السقوط أسرع". (Werke, XVIII, p. 583).

16) يعبر إنجلز بطريقة مماثلة كليا حول بسمارك في نص كتبه سنة 1888 المشار إليه في الهامش رقم 27. بإلقاء نظرة ارتجاعية حول العمل السياسي لهذا الأخير بعد حرب الانتصار لسنتي 1870-1871: "يتعلق الأمر حاليا بمعرفة ما سيفعله بسمارك بهذه القوة (...) كان عليه إعداد خطط، وإبراز الأفكار التي بإمكانها أن تولد في ذهنه"، وأضاف إنجلز بعد قيامه بتحليل للسياسة الداخلية لبسمارك يتضمن كل الظروف والتفاصيل: "تتطابق رداءة التصور، وحقارة وجهة النظر مع طابع الرجل (...) ومن الجدير مع ذلك الاندهاش من أن نجاحاته الكبرى لم تيمح له بالسمو فوق نفسه ولو للحظة واحدة". (Werke, XXI, p. 449).

17) تم نشر نص الحوار - ابتداء من هذا المكان في صيغة معدلة نسبيا- في جريدة "الاشتراكي" (بشيكاغو) بتاريخ 11 يناير 1879 (السنة الأولى، عدد 18) تحت عنوان: "كارل ماركس مطلع جدا". وقدم

أوبيرمان (Obermann) ترجمة ألمانية لهذا المقطع في المال المشار إليه أعلاه في الهامش رقم 1 (مقال مذكور في الصفحة 66).

18) لا يتجاوز عددهم 47 شخصا، لكن "سبعة وستين من رفاقنا الأكثر شهرة في الحزب (...) منعوا من الإقامة في برلين"، حيث "كان على أغلبيتهم مغادرة المدينة في غضون 48 ساعة". (A. Bebel, Aus meinem Leben, Stuttgart, 1914, III, p. 24). لقد خلط الصحفي الأمريكي أو ماركس بين الرقمين. فذكرُ تدابير منع الإقامة يسمح بافتراض أن الحوار الأخير ما بين ماركس والصحفي من جريدة "شيكاغو تريبيون" تمّ إبان الأسبوع الأول من ديسمبر سنة 1878. فالبريد السريع من لندن إلى شيكاغو كان يستغرق حوالي ثلاثة أسابيع ليصل إلى وهته.

19) أنظر: الرسالة التي أرسلها إنجلز، في نفس اللحظة تقريبا، إلى "بيكر"، بتاريخ 12 ديسمبر 1878، حيث نقرأ المقطع التالي: "يأمل بسمارك أن الجماعات الفوضوية والمناصرة لدوهرينغ ستقضي على انسجام جماعاتنا وتؤدي إلى ما يرغب في حدوثه فوق كل الاعتبارات: محاولة انقلابية تسمح لع باستعمال السلاح".

أجرى الحوار مراسل جريدة شيكاغو تربيون

أعد الوثيقة للنشر: بيرت اندرياس (Bert Andreas)

وكارل هنريش ماركس (Karl Heinrich Marx)

المرجع:

Andréas Bert, Marx Karl Heinrich, interview de Karl Marx au Chicago Tribune, in: L'homme et la société, N. 7, 1968, numéro spécial 150° anniversaire de la mort de Karl Marx, pp. 237-247.

كيف صار الشاب ماركس ثوريا؟

"الفلسفة والثورة من كانط إلى ماركس"

حوار مع ستاذيس كوفيلاكيس(1)

سؤال: قامت منشورات "لافابريك La Fabrique"، مؤخرا بإعادة نشر كتابك "الفلسفة والثورة من كانط إلى ماركس" الذي نشر لأول مرة سنة 2003، ففي أي سياق تم تأليف هذا الكتاب؟

ستاذيس كوفيلاكيس: لقد كتبت الجزء الأساسي من هذا الكتاب في أواخر التسعينيات، وعرف طبعته الأولى سنة 2003 في "المنشورات الجامعية الفرنسية" (PUF). ولقد عرفت هذه المرحلة عودة النقاش حول ماركس بناء على انطلاقة جديدة للحركات الاجتماعية في فرنسا وخارجها. ويمكنني أن أستعير عبارة مفضلة عند دانييل بنسعيد Daniel Bensaid وهي العبارة التي تقول: "بالرغم من صعوبة تحقيق الهدف، فإن هناك أثر لحدوث بعض التغييرات". لقد بدت لي اللحظة مناسبة لإطلاق تفكير

نظري لا مندوحة منه إذا أردنا تجاوز مرحلة هذه الهزيمة التي ختمها انهيار الاتحاد السوفييتي وانعطاف الصين نحو الرأسمالية.

يقع هذا الكتاب، من زاوية نظرية، ضمن استمرارية نقاشات المرحلة السابقة التي دُشِنت بما يُسمّى بـ"أزمة الماركسية" في نهاية السبعينيات. أما المسألة التي شغلتني فهي مسألة "النظرية السياسية عند ماركس"، والتي لازال وضعها ووجودها محلّ نقاش. يتعلق الأمر بكيفية التفكير في قضايا العلاقات ما بين النظرية والممارسة وبالسياسة الإستراتيجية الثوريتين، بالعودة إلى لحظة مؤسسة، تلك التي ترى أن مسار ماركس يتفرد في الفضاء الرحب للأنتلجنسيا المعارضة التي لها تكوين فلسفي بالأساس، في ألمانيا في مرحلة "فورمارتس"(2) Vormärz، أي في السنوات التي سبقت ثورات سنة 1848.

سؤال: يبدو كتاب "الفلسفة والثورة من كانط إلى ماركس" كمُؤلف إضافي عن ماركس، هل بإمكانك أن تشرح لنا هذه الخصوصية؟

ستاذيس كوفيلاكيس: هناك أمران يميزان هذا الكتاب، الأمر الأول هو أنني أحاول أن أضع ماركس ضمن مجموعة من المفكرين من بينهم هنريش هين (1787-1856) Christian Johann Heinrich Heine، وهيس (1812-1875)

Moses Hess، والشاب إنجلز Engels، وهي المجموعة التي يخيم عليها ظل شخصيتين تنتميان للفلسفة الكلاسيكية الألمانية وهما كانط وهيجل، وقد خصصت لهما فصلا في بداية الكتاب، كما عملت على توسيع دائرة المثقفين لأتمكن من تحديد ما هو متفرد عند ماركس ضمن الحركة الواسعة التي انحدر منها وهي حركة "الهيجليين الشباب". وهكذا أمكنني استأناف التفكير في جملة إنجلز التي ختم بها كراسته حول فيورباخ Ludwig Feuerbach والتي حيرتني وفتنتني دائما وهي الجملة التالية: "إن الحركة العمالية الألمانية هي وريثة الفلسفة الكلاسيكية الألمانية".

ينبغي إذن أن نفهم من هذا الأمر أن هذه الفلسفة التي تبدو ظاهريا كفلسفة تأملية فقط، هي حاملة لحمولة تحريرية في ملتقى فكر الأنوار وموجة الصدمة التي فجرتها الثورة الفرنسية، حمولة تطرح بشكل مباشر مسألة الإنجاز العملي. ولقد ردّد إنجلز في هذه الجملة كلمة "ألمانيا" للتأكيد على هذه الخصوصية، على هذا "المعنى النظري الألماني" حسب تعبيره، والذي ظهر في البداية في الفلسفة، أي بعيدا عن الممارسة، وهو ما يترجمه ماركس إلى نظرية جديدة، تريد أن تكون دليلا للعمل تستعمله هذه الطبقة القادرة على قلب الأوضاع القائمة.

وبتعبير آخر، يقود تحقيق الفلسفة عمليا إلى زوالها، إلى تجاوزها في الممارسة، هذا التجاوز الذي يحافظ على حقيقتها المتضمنة فيها، بجعلها فعلية وفعالة بشكل ملموس. هنا يتدخل ماركس الذي يقول أنه ينبغي التفكير في إلغاء الفلسفة كإلغاء سياسي، لكن لا يتعلق الأمر بأية سياسة كيفما كانت، يتعلق الأمر تحديدا بترجمة المحتوى التحريري –الذي تملكته الفلسفة الكلاسيكية الألمانية- إلى سياسة، وهو الأمر الذي يحول بعمق، في نفس الآن، التصورات السياسية عن "السياسة" بل وعن "الثورة".

وتكمن الخصوصية الثانية لعملي في الاهتمام بالشغف بالسياسة، وهو ما أعتبره محركا للتطور الثقافي لماركس. إنه شغف يتغذى أيضا من علاقته العميقة بهيجل، الذي يُعتبر مفكر الحداثة البرجوازية وتناقضاتها، هيجل الذي تعتبر واقعيته القاسية أكثر إفادة للثوري من أي مذهب أخلاقي أو حماس إرادوي.

سؤال: تبحث عن تفسير للفكر الثوري عند ماركس، ليس باعتباره منطقا متضمنا سلفا في التاريخ، ولكن كنتيجة سياسية وفلسفية لمرحلة "فورمارتس". هل يمكن توضيح هذه الفكرة؟

ستاذيس كوفيلاكيس: كما سبق لكارل كورش Karl Korsch أن دعانا في كتابه "الماركسية والفلسفة" أحاول جاهدا أن أطبق على ماركس المنهج الذي بلوره لدراسة

الوقائع الاجتماعية والتاريخية، والذي ينطلق من المبدأ القائل أن الأفكار لا تسقط من السماء. إن فهم خصوصية وتفرد ماركس يعني التخلص من التصور القائل بأن كل فكره كان متضمنا بشكل جنيني في عبقريته الفردية، وذلك لنتمكن من الإحاطة بالكيفية التي تصرف وفقها شاب راديكالي على المستوى العملي والنظري مع الأحداث غير المتوقعة التي زادت من حدة مرحلة "فورمارتس"، والتي قادت إلى ثورات سنة 1848.

لم يولد ماركس ثوريا، وإنما صار ثوريا عبر انتزاع نفسه انتزاعا صعبا من الإطار الذي كان يستعمل كمرجع للمثقفين الألمان من جيله، حتى وإن كانوا من المعارضة. كان عليه أن يواجه وضعية بدأت تعرف تقلص النشاط الثقافي في الجامعة وفي الصحافة على وجه الخصوص بسبب الضربات العنيفة من الملكية البروسية التسلطية. وكان منافسو ماركس ومحاوروه من "الشباب الهيجلي" يقومون بردود أفعال إما عبر الانسحاب أو عبر القفز إلى الأمام باستعمال خطاب متطرف يخفي عجزهم التام. وكان ماركس يفضل المنفى ليشارك في الأنشطة السياسية للمهاجرين من العمال والمثقفين والذين كانوا يتمركزون بباريس وبروكسيل ولندن.

لقد مكن المنفى ماركس من الاتصال المباشر بالتيارات الثورية الأوروبية الأساسية، كما وجهةُ المنفى نحو

الشيوعية. وكان لراديكاليته خصوصية تمثلت في الربط ما بين العمل السياسي الفعلي والتجديد النظري. وهكذا فرضت شيوعية ماركس نفسها منذ البداية كقطيعة مع المذاهب الشيوعية المعروفة آنذاك (1840) من بلانكي (1805-1881) Auguste Blanqui إلى كابي (1788-1856) Etienne Cabet وأتباع بابوف الجدد (1760-1797) Gracchus Baboeuf.

سؤال: تنبع أصالة المنهجية المتبعة من المُؤَلِفين الذين قمت بتحليل مواقفهم مثل هين وهيس وكانط وفيورباخ. لماذا هذا الاختيار؟

ستاذيس كوفيلاكيس: يتطلب تحديد تفرد وتميز ماركس أن أحدد موقعه ضمن مجموعة تضمن أكبر عدد من المنافسين والمحاورين المنتمين لتيار الشباب الهيجلي. ولقد اخترت على وجه الخصوص هيس وإنجلز وفضلتهما على فيورباخ، الذي كان بعيدا عن مشاكل السياسة، لأنهما كانا على اتصال بالتيارات الاشتراكية، وفي حالة إنجلز بالتحديد فإنه كان على صلة بواقع إنجلترا الصناعي، وبحركتها العمالية القوية. ومع ذلك، فإن مسارهما يختلف بوضوح عن مسار ماركس كما تبين السنوات التي أدرسها في هذا الكتاب، لقد تبنيا معا اشتراكية إنسانية لها بعد أخلاقي قوي، اشتراكية معادية للعمل السياسي.

ويعتبر "هين" حالة خاصة، فهو ينتمي لجيل سابق. لقد كان يعرف شخصيا كلا من غوته Goethe وهيجل، واختار المنفى في باريس منذ بداية ثورة يوليوز 1830، الشيء الذي مكنه من الالتقاء بماركس. وبلور "هين" قراءة سياسة للفلسفة الكلاسيكية بشكل مباشر، كما بلور قراءة بشكل موسع للثقافة الألمانية التي تبرز النواة الثورية لهذه الثقافة، وتقوم بدور حاسم في التبادل الثقافي ما بين فرنسا وألمانيا إبان هذه المرحلة. وقام بدور ريادي في ترجمة النظرية الألمانية إلى الفرنسية، أي تمكين النظرية الألمانية من لغة سياسية، هذه النظرية التي سوف تعرف مع ماركس مسارا جديدا.

سؤال: ألهذا السبب تتوقف في دراستك في ما قبل المرحلة الثورية لثورة 1848؟

ستاذيس كوفيلاكيس: تتوقف دراستي عن ماركس بالفعل عند لحظة بداية منفاه في باريس، والتي هي في نفس الوقت لحظة لقائه بـ"هين". لقد تحول ماركس في هذه اللحظة من لحظات مساره إلى ثوري، ورأى في البروليتاريا الفاعل في ثورة ألمانية من نوع جديد، "ثورة راديكالية" تتجاوز الأفق الفرنسي لسنوات 1789-1793، لكونها تعيد النظر في مجموع البناء الاجتماعي.

ينبغي التركيز على المفارقة العميقة لهذا الموقف، لأن ألمانيا –كما ردّد ذلك ماركس بقوة بعد آخرين- هي بلد

متخلف سياسيا واقتصاديا، لكنها لم تكن متخلفة نظريا. وما رآه ماركس مبكرا هو استحالة نجاح ثورة "بورجوازية" في ألمانيا لأن ظهور البروليتاريا في مسرح الأحداث يعتبر كافيا لدفع البرجوازية على التواطؤ مع الطبقات المسيطرة القديمة. كان مصير ألمانيا رهينا بهذا التمزق ما بين هذه الوضعيات المتباينة والتي تحدث في نفس الزمن. وانطلاقا من "عدم تطابق الأزمنة"، حسب تعبير مفضل لدانييل بنسعيد، تظهر إمكانية غير متوقعة وهي "الثورة الراديكالية".

14 فبراير 2017

المرجع:

www.revolutionpermanente.fr/Philosophie-et-revolution-de-Kant-a-Marx-Entrtien-avec-Stathis-Kouvelakis

هوامش:

1) ستاذيس كوفيلاكيس أستاذ الفلسفة بلندن منذ سنة 2002، يكتب في عدة مجلات يسارية (منها Actuel Marx, Contretemps)، ناضل في صفوف اليسار الراديكالي والمعادي للرأسمالية في اليونان وفرنسا (الحزب الشيوعي اليوناني، الحزب الشيوعي الفرنسي، العصبة الشيوعية الثورية الفرنسية، الحزب الجديد المعادي للراسمالية بفرنسا، حركة سيريزا في اليونان، الوحدة الشعبية في اليونان).

2) مرحلة فورمارتس Vormärz هي مرحلة ما قبل مارس، وهي المرحلة الممتدة من مؤتمر فيينا سنة 1815 وحتى ربيع الشعوب سنة 1848 الذي تعم إجهاضه.

حول مفهوم الثورة
(كيف نعيد لمفهوم الثورة حدته وعنفوانه؟)
جورج لابيكا

تقديم المترجم:

يكتسي مفهوم الثورة أهمية قصوى نظرية وعملية في الفكر الاحتجاجي عموما وفي الفكر الماركسي خصوصا، لأنه ليس مجرد كلمة وصفية ولا مجموعة أحاسيس تختلط فيها الرغبة في العدالة والعمل من أجل التغيير... ولكنه مفهوم نظري يكثف لحظات تاريخية محددة وينبني على معرفة موضوعية قدر الإمكان بواقع معين، ويرمز إلى عملية تحويل جذرية لوضع معين، ويحيل على تجارب ثورية مختلفة مثل الثورة الفرنسية والثورة البلشفية والثورة الأمريكية وحركات التحرير الثورية... ولقد جعل الفيلسوف الفرنسي جورج لابيكا (1930-2009) مفهوم الثورة مفهوما مركزيا في إنتاجه الفلسفي وممارسته النظرية. اهتم بالفكر العربي عبر الاهتمام بابن خلدون (أنجز أطروحة تحت إشراف مكسيم رودنسون حول موضوع: السياسة والدين عند ابن

خلدون، دراسة في الإيديولوجية الإسلامية") كما قدم تقديما جديدا لكتاب ابن طفيل ("قصة حي ابن يقظان أو الفيلسوف المتوحد"). وأنجز أطروحة سنة 1976 حول موضوع "الوضع الماركسي للفلسفة" وساهم في تأليف كتاب مرجعي عن الماركسية تحت عنوان "القاموس النقدي للماركسية". وكان له موقف شجاع من قضية الشعب الفلسطيني بدفاعه عن حقه في استعمال العنف في نضاله التحريري وهو الموقف الذي أدى به على قطع علاقته مع صديقه الفيلسوف الفرنسي إيتيان باليبار. كما انتقد أطروحة فوكوياما القائلة "بنهاية التاريخ" وأطروحة هنتنجتون القائلة "بصدام الحضارات" معتبرا أن هاتين الأطروحتين تشكلان مناورة تهدف إلى منع ثلثي سكان الكرة الأرضية من العيش كما تعيش شعوب العالم المتقدم. ولقد ألف كتابا تحت عنوان "الديمقراطية والثورة" سنة 2002، بين فيه الترابط الوثيق بين المفهومين.

نص جورج لابيكا:

تقديم: الأطروحة

1- تظل مسألة الثورة مطروحة دوما، وهذا يعني أن الأمر يتعلق براهنيتها. فسواء تم حجبها بحجاب محتشم أو تم

إغفال الكلام عنها بشكل تام، فإن حضورها يزداد عنادا وهو حضور يضرب جذوره في القدم ويفرض نفسه في الحاضر في نفس الوقت، مثلها في ذلك مثل القمع. ولا يتعلق الأمر بطوبى (يوطوبيا. إن فكرة الثورة ليست أكثر بعدا عن التحقق مما كانت عليه زمن ماركس. بل على العكس من ذلك، من المناسب الاستفادة من أوهام ماركس. فماركس كان يعتقد بقرب انهيار الرأسمالية، ولقد كان اعتقاده هذا، والذي شاركه فيه أنجلز سنة 1848 خاطئا، واعترفا بذلك.

أما نحن اليوم، وعلى خلاف ماركس وأنجلز، فإننا نملك معرفة بعدة ثورات، ونعرف ما كانا يجهلانه وهو أن بإمكان الثورات أن تكون: حمراء ووردية وبيضاء أو سوداء. وتجنبنا هذه المعرفة، الذي تشكل تجربة مهمة تتكون من عدة تيارات وتيارات مضادة أي من عدة تناقضات وتحديدات تضافرية، تجنبنا اللجوء لأي دليل مُوجِه كيفما كان.(1)

2- كان حكم ماركس وأنجلز عن قرب قيام الثورة سابقا لأوانه شيئا ما، وكان بالنسبة لعصره حكما متفائلا بدون شك إلى حد ما. فلقد كان الأمر يتعلق بالصمود. أما اليوم، فيبدو لي أن هذا الحكم جد ملائم للوضع القائم، وهذه هي الأطروحة التي أود عرضها هنا.

عالم مليء بالعنف:

3- يتميز القرن الذي انتهى مؤخرا بمفارقة لا مثيل لها. فهو يتصف من جهة بتقدم يتمثل في تراكم الاكتشافات والاختراعات والثورات العلمية والتقنية في جميع ميادين البحث وبشكل لم يسبق له نظير، وهو من جهة أخرى يعتبر قرن البربرية في أوج اكتمالها، حيث شهد الموت الجماعي بسبب الحروب والتصفيات الإثنية والسياسية وجميع أشكال المعاناة الجماعية، سواء تعلق الأمر بتعميم التعذيب والتنقيل التعسفي للسكان أو الجماعات المنظمة. ولا حاجة للجوء إلى تدقيقات جدلية لفهم أن المظهرين مرتبطان ببعضيهما البعض ارتباطا وثيقا. فمن يستطيع أن يزعم أن تصنيع القتل لم يكن لصالح العلماء الطيبين والمعالجين الطبيين وحماية البيئة؟ يتم غزو الفضاء وفي نفس الوقت يتم تدمير التربة. كما إن نفس البلد الذي يستثمر الملايير في صناعة حاملة طائرات نووية يعاني من تفاقم نسب البطالة ونسب الفقر.(2) ولا يمكن تكرار المديح لحقوق الإنسان في الوقت الذي يُجبر فيه آلاف الأطفال على العمل وأحيانا يجبرون على البغاء. يتم فتح مطاعم للكلاب علما أنه توجد في إفريقيا مجموعات سكانية بأسرها ترزح تحت مرض السيدا. كل هذه الأمور معروفة وتم وصفها مائة مرة بدون شك، ولكن إذا كانت الحقيقة تتوارى عن الأذهان فإن المفارقة التالية هي أقل تواريا من الحقيقة: معرفة أن الإنسانية بلغت في الأخير

مرحلة من التطور تخول لها التخلص من الندرة التي شكلت قدرها على امتداد قرون عديدة. فمراكمة الثورات من كل الأنواع، ابتداء بإنتاج الخضر الطرية وحتى الصحة والتعليم والسكن المريح، يمكنها أن تضمن إشباع الحاجات الحيوية وتخلق شروط حياة خالية من المجاعات والأوبئة والقمع والقهر: هذا من الناحية المبدئية.

4- يبدو أن القرن الجديد لا يختلف في شيء عن سابقه. بل إنه يتهيأ لتعميق تلك المضار. ولنأخذ فقط خاصية واحدة مميزة لحداثته وهي الآتية: يقال أن انعدام الأمن يسود في كل مكان ويقال هذا لما توفرت في الأخير شروط حضارة سلمية ومسالمة: وهذا دائما من الناحية المبدئية. إن الخطاب حول انعدام الأمن والذي يتم تكراره باستمرار من طرف القوى الغربية يؤدي وظيفتين تتمثلان في تسجيل ظاهرة العنف والزيادة فيها بشكل أكيد: انحراف في المدن والمدارس ووسائل النقل العمومية وإخفاء الأصل الاجتماعي للعنف، وتمكين السلطة، تحت مبرر صعود اليمين المتطرف، من تدعيم وتقوية الأجهزة القمعية (الزيادة في أعداد الشرطة والدرك، فتح مراكز اعتقال جديدة...) والتضييق على الحريات (المراقبة "البوليسية الإلكترونية" للمواطنين، تشديد إجراءات المراقبة) وإغلاق الحدود (مطاردة المهاجرين وطردهم بشكل عنيف) وتجريم المقصيين (الذين لا يملكون أوراق الإقامة، العاطلون عن

العمل، الفقراء). كما لم تمكن الزيادة في عدد السجون، ولا تفويتها للخواص لإدارتها (في بعض البلدان) من حل مشكل اكتظاظ السجناء. كما أن الاعتقال الانتقائي اجتماعيا والقائم على أساس عرقي بشكل علني (في الولايات المتحدة على سبيل المثال) يقوم بوظيفة الضبط، رغم أن هذه الوظيفة هي من اختصاص السياسيات الديمقراطية قانونيا.(3) لقد ظهر نوع جديد من العنف في مجال الشغل. ولا يتعلق الأمر هنا فقط بفئة "العمال الفقراء" في الغرب حديثة التكوين، ولكن الأمر يتعلق أيضا بظاهرة عرفت اتساعا هائلا وهي ظاهرة "التحرش الأخلاقي". وتعتبر عناوين الكتب التي خصصت لهذه الظاهرة بليغة وجد دالة ومنها: "التحرش الأخلاقي والعنف اليومي المنحرف(4)، التحرش في أوساط العمل(5)، معاناة في فرنسا(6)، الرعب في أوساط العمل(7)، العنف في أوساط العمل: اعتداءات وتحرشات وخطط اجتماعية(8).

ومن أجل فرض مطابقة المعايير المتعلقة بمسألة القابلية للتوظيف والمرونة والتنقل والهشاشة، يعمل "علم التسيير الإداري الجديد" على "تدمير الهويات" الفردية والجماعية، ويقوم بعمله هذا بتصفية منهجية لمجموع الأجَراء السابقين ولمعاييرهم في مجال الشغل (والمتمثلة في استقرار المناصب، والترقية المضمونة، والتراتبية، والممارسات النقابية) من أجل تحقيق خضوع تام لمصالح المقاولة. ولقد

لاحظت عالمة الاجتماع "دانيال لينهارت"، أن الأمر "يتعلق بانقلاب في تاريخ الطبقة العاملة، ففي الوقت الذي كانت تعرَّف فيه دائما كطبقة مستغَلَّة ، أصبحت تقدم نفسها اليوم كضحية"(9). فلقد أصبح كل أجير مهددا بأن يصيبه ما أصاب "أجراء كلينيكس"، أي أولائك الذين تم الإلقاء بهم إلى الشارع على إثر "تنفيذ الخطط الاجتماعية" والتي تدعي أنها تقوم "بإزالة الزوائد"، وهو ما يعني بتعبير آخر طرد العمال من عملهم. ويتميز "العنف الممارس في إطار تنظيم العمل بالعدد الهائل من حالات الطرد وكذا القوة المستعملة في تنفيذها. وحسب تقريرين أنجزهما المكتب الدولي للشغل توجد فرنسا على "رأس البلدان المتقدمة التي يمارس فيها العنف في مجال الشغل ويقدر عدد العمال المعنيين بهذه الآفة بسبعة ملايين عامل"(10).

وتتضاعف سلوكات التدمير الذاتي كنتيجة لـ"نزع الطابع الإنساني عن عالم الشغل"(11). ولا يستبعد الملاحظون، فضلا عن ذلك، أن تظهر في فرنسا، مثلما هو الأمر في الولايات المتحدة الأمريكية، اعتداءات بسبب الحمق القاتل الذي يصيب الأجراء المطرودين من عملهم والذين يعودون لمقر عملهم السابق لينتقموا.(12) ولقد تم فتح تخصص تحت اسم "استشارة متخصصة حول المعاناة في مجال الشغل" بمستشفى "لاتيمون" بمرسيليا.(13) كما قام أطباء نفسانيون ببرشلونة من جهتهم بتشخيص اضطرابات

نفسية خطيرة –تحت اسم "تناذر (أو ساندروم) أُوليس"- والتي تصيب بشكل خاص العمال المهاجرين.(14) ونعلم إضافة إلى ذلك ما يتعلق بـ"التحرش الجنسي"(15) والتزايد الهائل في أعداد المنتحرين الشباب الذين أصبحت حياتهم لا تنفصل عن "صعوبة ظروف العيش".(16).أما بخصوص التجارة فلقد نشرت مؤخرا إحدى المجلات المتخصصة ملفا خاصا بـ"بينغ بانغ (أو الانبثاق العنيف) السوق الأمنية" يكشف عن رقم معاملات "تجارة الخوف" الذي بلغ 6 ملايير دولار، وعن كونها توفر 158 ألف منصب شغل، وعن تنوع زبنائها فمنهم الخواص والمقاولات والجماعات المحلية والدول أيضا.(17)

الحرب كسياسة:

5- وقعت الهجمات الإرهابية على برجي "وورلد سانتر" بنيويورك في شتنبر 2011، في وقت مناسب لتبرير سياسة الهيمنة الأمريكية عبر الخطاب حول الإرهاب الذي تم إعداده في الواقع قبل الهجمات والذي تم تجريبه قبل ذلك في حرب الخليج الأولى. يتعلق الأمر بمعارضة كل محاولة –من أي بلد جاءت- تتعلق بالتنمية الذاتية أو بالاستقلال السياسي والاقتصادي والقادرة بالأخص على تخليص موار الطاقة من مراقبة القوى العظمى. تبذل القوى

العظمى مجهودات أقل في استغلال احتياطاتها الخاصة في مجال الطاقة (ألاسكا مثلا) وتبذل مجهودات كبرى لمنع المنافسين الكبار من الحصول على هذه الموارد في المستقبل (الصين مثلا). إن الخطاب حول الإرهاب والذي ليس شيئا آخر في الواقع سوى اختلاق عدو وهمي. وهذا ما يؤكده نموذج بن لادن، الذي يشبه سلاحا يرتد ضد صاحبه ويشكل الوجه الآخر لـ"إنرون" (الشركة الأمريكية العملاقة التي أفلست بسبب المضاربات)،(20) والذي طمح إلى إشعال ما يسميه أسياده ومعلموه أنفسهم بـ"الحرب الشاملة" التي لا تعرف نهاية. ويجب أن تفهم خاصية الشمولية هذه بمعنيين: بالمعنى الجغرافي (حرب تشمل الكرة الأرضية)، وبالمعنى اللساني (حرب تحتوي كل شيء)، ونلاحظ أن عبارتي "عدالة بلا حدود" و"الحرية الثابتة" المصاحبتان لهذه الشمولية تؤيدان هذا المعنى. ومع ذلك فالنداءات الأخلاقية التي تطالب أمريكا بمهمة نقل وحماية الحرية والديمقراطية في العالم لن تخدع أحدا. فهي تشبه القول الفارغ: "الحرب الصليبية للخير ضد محور الشر"، ولقد كشفت الأحداث عن الحقيقة الخفية التالية: تعبر الحرب في الواقع عن نمط وجود يميز الولايات المتحدة الأمريكية منذ نشأتها، وبالخصوص منذ الحرب العالمية الثانية.(21) وها نحن نرى أنها لم تعد تقيم أي اعتبار للمرجعيات الأخلاقية وتخلت عن الاحتماء باحترام حقوق

الإنسان أو دولة الحق والقانون. وانطلاقا من اكتساب أمريكا لنوع من القدسية بسبب استغلالها السيئ لعملياتها في أفغانستان، فإن قرار ضرب العراق تمكن من المرور عبر المؤسسات التي تعزى لها حمايته مثل الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن والاتحاد الأوروبي... كما أن مفهوم "الحرب الوقائية" والذي هو مفهوم لا يصدق ولا تربطه أية رابطة بالوقاية الطبية ما عدا عبارة "الضربات الجراحية"، يسمح –في إنكار صريح للحق والقانون- باتخاذ القرارات الأكثر تعسفية: ففي هذا البلد يفرض الإنذار الأخير تغيير الحكومة، وهناك من المفترض أن تتمخض الديمقراطية عن القنابل(22)، وفي مكان آخر يتم التصريح بأن تنفيذ أبشع حصار هو لصالح الشعوب... فالإقناع والنقاش لم يعودا مقبولين لما يكون بالإمكان شراء الحكومات والبرلمانات والآراء... فالحرب كسياسة لها منطقها الخاص بها.

6- أولا: تعطى الأولية للميزانيات العسكرية. فلقد زيد في الميزانية العسكرية في الولايات المتحدة الأمريكية مبلغ قدره 48 مليار دولار غداة أحداث 11 شتنبر. وبلغ حجم هذه الميزانية 379 مليار دولار، إضافة إلى مبلغ قدره 160 مليار دولار سيحصل عليه البنتاغون بعد عشر سنوات.

7- ثانيا: يحدث توظيف هذه الأموال اختلالا في المراكز الأخرى ويعيد توجيه الاختيارات الاقتصادية والاجتماعية، كما أنه من السهل جدا اقتراح سيناريوهات بديلة.

8- ثالثا: تفرض الحرب على وجه الخصوص عسكرة الاقتصاد على المستوى الوطني وعلى المستوى الدولي والجيوستراتيجي.

9- رابعا: يؤدي اختيار القوة العظمى بعسكرة الاقتصاد إلى إجراءات مشابهة في البلدان المتقدمة أي في الأمبرلياليات التابعة، ويُخضع البلدان غير المتقدمة، والنامية، أي البلدان المستعمرة من جديد، لإكراهات مالية ظالمة وتعسفية في ما يخص تدبيرها لشؤونها وذلك عن طريق الهيئات والمنظمات متعددة القوميات التي توجد لخدمة القوة العظمى (صندوق النقد الدولي، المنظمة العالمية للتجارة، البنك الدولي، اتفاقيات جهوية مختلفة).

10- خامسا: تمت الموافقة على تحرير تجارة الأسلحة من أية رقابة، ونعرف أن معاهدة "الحد من انتشار الأسلحة النووية" لم توقع عليها أمريكا، فالقوة العظمى لا تجد أدنى حرج أن تبيع،اعتمادا على القوة، "أسلحة الدمار الشامل" (النووية والكيماوية والبيولوجية) حتى لمجموعات لا علاقة لها بالدول، والتي بإمكانها استعمال تلك الأسلحة كما يحلو لها، بما في ذلك استعمالها في عمليات إرهابية. لقد تمت مراجعة التصور المتعلق باستعمال الأسلة النووية في

البنتاغون وذلك بتفضيل الاستعمال المحتمل لقنابل نووية صغيرة ضد الأماكن المحصنة تحت الأرض، وهو ما دفع أحد الملاحظين إلى القول: "نحن في أسوأ وضعية، وهي وضعية عالم غير قابل للمراقبة"(23). ولقد أثار الفاتيكان، إبان الهجوم الوشيك على العراق، خطر قيام "حرب عالمية ثالثة".(24)

11. سادسا: ولنضف إلى أن الحرب كسياسة والتي تغلف بشعار "التعبئة القومية" تقدم امتيازا مهما وهو استعمالها أحيانا كغطاء للفضائح المالية التي تعري الاشتغال الحالي للرأسمالية (الاتحاد الأوروبي مثلا)، واستعمالها أحيانا أخرى كغطاء للإصلاحات السياسية الداخلية الأكثر تشددا ومحافظة (فرنسا مثلا).(25)

12. يتم تسويق الإرهاب بشكل جيد مثلما يتم تسويق الأمن: ولقد صرح رئيس جمعية "اللويدس بلندن" (المتخصصة في تجميع ونشر المعلومات البحرية وكل ما يتعلق بالبواخر) في حوار أجري معه أن شركته تمكنت من تغطية النفقات التي فرضتها هجمات 11 شتنبر، و"أن الأعمال التجارية انتعشت... وأن سوق الحماية ضد الإرهاب يعرف اليوم ازدهارا وانتشارا كبيرين في العالم بأسره، إلا أنه يعتبر في نفس الوقت مسرح منافسة شديدة".(26)

13. بكل تأكيد، يظل "بوليموس" (أي الحرب) "سيد جميع الأشياء".

معاينة الإفلاس:

14. هناك ارتباط وثيق بين الخطاب حول الأمن والخطاب حول الإرهاب. فالخطاب الأول يدعي أنه يستهدف الإرهاب أيضا، والذي يضمن له غطاء مشرفا ويضعه في قلب العولمة. أما الخطاب الثاني، فيفرض نفسه، في صيغته الأمريكية، باعتباره شرطي "الأمن العالمي". ويعبران معا عن العنف الذي يميز عصرنا ويستفيد من سوق مزدهرة ومستقبل "جد واعد"، بما أنه يرتكز على جميع أشكال الصراع: ما بين الأمم والشعوب والإثنيات والمجموعات ذات الخصائص الثقافية المميزة لها عن بعضها البعض والديانات والحضارات والطبقات، وفي مجال الاقتصاد والسياسة والإيديولوجية والمواد الغذائية والثقافة والفلاحة، وفي الشارع والمدرسة والملعب والعائلة وداخل العلاقة الزوجية وفي الورشة والمقاولة...

15. إن النظام هو المسؤول بكل تأكيد عن بلوغ العلاقات الرأسمالية مرحلة العولمة في مجال الإنتاج، والتي لا زالت تسمى إلى اليوم بشكل محتشم: الليبرالية الجديدة (النيوليبرالية). ولا حاجة للتأكيد على ذلك. يجب فقط أن نشير إلى أن سبب هذا التنازل هم مسؤولو البنتاغون المصابون بالبارانويا (ذهان هذياني)(28)، الذين أوصلوا

التعارض ما بين الخير والشر إلى ذروة اكتماله القصوى كذهان مانوي (يقوم على صراع الخير والشر) ينقلب إلى ضده ليجعل الثنائيات التالية ساطعة وأكيدة: المسيطِرون والمسيطَر عليهم، والمستغَلون والمستغِلون،الأسياد والعبيد،الأغنياء والفقراء سواء انتمت هذه الثنائيات للأسلوب القديم أو الجديد. هذا التشخيص عام. ولقد كان موضوع جميع الدراسات والتحليلات، من الأكثر رصانة وحتى الأقل مجاملة، التي خصصت للعولمة أو للنظام الشامل. ولقد حثت في البداية على التقدير الفعلي ولو بشكل مقتضب للإفلاسات الناتجة عن العولمة.

16. وأحدث إفلاس هو ذلك المتعلق بالليبرالية. ولازلنا نتذكر الاحتفاء الذي صاحب سقوط جدار برلين، وتسجل هذه الحقبة الرمزية اضمحلال البلدان الأوروبية التي خبرت الاشتراكية المطبقة. وتم إطلاق العنان للمتحمسين في الاحتفال بانتصار اقتصاد السوق والديمقراطية التي كان من البديهي أنها ملازمة له، ونهاية الإيديولوجيات وبالخصوص نهاية الشيوعية التي وصفت بالإجرامية والطوباوية في آن واحد. إن اختفاء الخصم في الحرب الباردة، واختفاء المنافس الذي كانت مناوراته تهدد العالم، جعل الطريق تُعبّد أمام مستقبل يقوم على التقدم والسلم. ومن جهة المهزومين (وأقصد بالمهزومين كل أولائك الذين كانوا في لحظة أو في أخرى، وحسب إمكانياتهم، مشاركين في

مشروع بناء مجتمع أكثر عدالة، ولا أقصد بذلك الطماعين الذين هرولوا بسرعة إلى تغيير موقفهم، وحولوا مقرات الحزب إلى متاجر للمنتجات الجنسية) الذين كنتُ واحدا منهم، طغت الأحقاد والمرارة على سلوكيات الحداد والإحساس بالذنب، وتمت إدارة كل ذلك بإحكام وبذل التضحيات المنضوين الجدد. لكن عشر سنوات هزيلة فقط كانت كافية ليتبخر الحماس من جديد، ولتختنق صرخات الفرح في الحناجر. فاتساع هوة عدم المساواة، في الشمال والجنوب معا، والمآسي التي تشبه السقوط في أعماق الجحيم والتي عاشتها الشعوب التي كانت اشتراكية سابقا، دون الحديث عن مضاعفة الصراعات المسلحة والاعتداءات التي تقوم بها القوى "الديمقراطية"، كل هذه العوامل أجهزت على الانتظارات المتواضعة جدا لهذه الشعوب. فوجود عدو بدا أمرا ضروريا لما تدعيه الليبرالية: لذلك عوّض المسلمُ الشيوعيَّ. فالتنافس ما بين نماذج التنمية من جهة والتعايش السلمي من جهة أخرى أخليا المكان للحرب الشاملة ونصبا الإمبريالية الأكثر قوة على عرش العالم. وهنا أيضا لم يتوقف الزمن عن الانحسار. لم يكن ضروريا، كما لاحظ ذلك إيمانويل فاليرشتاين، الانتظار طويلا لكي تُبدد إدارة بوش رأسمال التعاطف الذي حصلت عليه بسبب اعتداءات نيويورك، وتجد نفسها معزولة دبلوماسيا.(29)

17. إن مثال الأرجنتين هو مثال كاف للقضاء نهائيا على الآمال النيوكولونيالية: فالأمر يتعلق ببلد غني، انتصر على الديكتاتورية العسكرية، وانخرط في "معجزة" اقتصادية، وهو صديق للولايات المتحدة وتلميذ ممتاز للهيئات المالية الدولية، ومع ذلك غرق بقضه وقضيضه كما تغرق سفينة من سفن القرن السادس عشر.

18. هل هذا يعني أنه يجب التأسف على حقبة "المعسكر الاشتراكي"؟. رغم أن العديد من استطلاعات الرأي والأبحاث الميدانية المتعلقة بالرأي العام في أوساط الأمم المحررة من "الديكتاتورية البلشفية" تشهد على انتشار واسع للإحساس بالحنين، مقارنة مع الانتقال إلى الرأسمالية الموجودة فعليا، فليس من المقبول قبول هذا الجواب. فهذا الجواب لا يقود فقط إلى طريق مسدود، وإنما يجدد الجهل بما شكل بدون شك مأوى الانهيار: أي عدم ابتعاد الأنظمة الاشتراكية بالشكل الكافي عن "النموذج" الغربي، لأنها قلدته في عدة أوجه منها الإنتاجية الاقتصادية والاحتكار السياسي المخول للجهاز التنفيذي. لن نخوض هنا في موضوع الجمع ما بين العوامل الداخلية والخارجية لتفسير الفشل، وليس هذا مجال القيام بفرز ما هو إيجابي عما هو سلبي. لقد تطرقت العديد من الدراسات الجدية لما هو أساسي في هذا الموضوع. وسأكتفي باقتراح حُكمين للتفكير، وهما حكمان لم يستنفذا استخلاص العبر

منهما. الحكم الأول مستعار من جورج لوكاش، الذي كان سابقا للأحداث التاريخية اللاحقة لما برهن على أن الستالينية لم تتمكن من أن تمثل بديلا عن الديمقراطية البرجوازية مثلما لم تتمكن الديمقراطية البرجوازية من أن تمثل بديلا عن الستالينية(30) (عبر لوكاش عن هذه الفكرة في كتابه الذي تركه غير مكتمل سنة 1968). والحكم الثاني هو إحالة على فكرة مستفزة عبر عنها إرنست بلوخ لما صرح قبل وقت قصير من وفته في حوار تلفزيوني "بأن أسوأ الشيوعيات أفضل من أحسن رأسمالية".

19. إن الاشتراكية الديمقراطية والأحزاب التي تؤثر فيها عبرت عن فرحها وعن انتصارها هي أيضا عند سقوط الجدار. فهي بطبيعة الحال كانت المستفيدة الأولى لأنها وصلت إلى السلطة بفضل هذا السقوط. وهكذا تلونت خارطة أوروبا السياسية باللون الوردي (لون الاشتراكية الديمقراطية)، وانتصر أخيرا الانتهازيون على الشموليين (الذين لم يعودوا يسمون بالثوريين). ووجدت "الديمقراطية" (بدون أية أوصاف إضافية) والسوق أبطالهما. ولم يعودا خائفين من تحدي الرأسمالية. لم نعد نسمع الحديث عن "الاقتصاد المزدوج" الذي عليه أن يضمن انتصار القطاع العام على القطاع الخاص، ولا عن "مشاركة العمال" ولا عن "أوروبا الاجتماعية"، بل لم نعد نسمع الحديث حتى عن "حرب إنسانية". وسوف يبدأ عهد الحق: دولة الحقن حقوق

الإنسان، الحق الدولي، لكن هذا الذي يسمى بالرأسمالية يعاني من صعوبات كبيرة أكبر مما كان يظهر للعيان، والخصوم ليسوا في المستوى، اللهم إلا إذا لم يكونوا خصوما. لكن ما يسود في الواقع هو التهام القطاع الخاص للقطاع العام(31) عبر عدة طرق منها "الزيادة في رأسمال" المقاولات و"شراء الأسهم" وتضخيم نسب العاطلين عن العمل، وخلق تصدعات بين مكونات أوروبا، واستمرار أوروبا في القتل والتدمير ونشر الخراب الشامل، واستمرار استغلال الحق لخدمة الأقوى.(32) وهكذا لم يعمر الانفراج طويلا. واعترف البديل الاشتراكي الديمقراطي بدوره بإفلاسه بشكل أسرع مما كان متوقعا: والمقصود بالبديل هنا النموذج المثالي، أي البرامج والوعود. أما الأفراد، الذين كانوا مجرد منفذين، فلم يتأثروا بهذا المآل وينوون البقاء في مقاليد السلطة، ويعتقدون أنهم لم يكونوا مذنبين أبدا، بل كانوا واقعيين فقط. كان مصيرهم مشؤوما، وكان عليهم أن ينحنوا تحت ثقل هذه الحمولات الثقيلة التي تتجاوز طاقاتهم. وبهذا الشكل سادت الفكرة التي تقول بأن "قوانين" السوق تخضع مثلها مثل قوانين الطبيعة للحتمية أو للضرورة وأن "الدولة لا يمكنها أن تقوم بكل شيء".

وبمجرد ما أنجز "الاشتراكيون" مهمة جعل الشعوب تتجرع التدابير الأكثر لا شعبية، لم يعد أمام اليمين إلا استأناف العمل بالعودة إلى "تسيير الشؤون الاقتصادية". وهكذا يحل

عهد "الأذرع المكسرة" ويدوم. سأكتفي بإثارة نتيجتين ملازمتين لموجة الاشتراكية الديمقراطية: لقد ابتلعت الاشتراكية الديمقراطية الأحزاب الشيوعية "الغربية" وذالك وفق عدة أنماط من عمليات الابتلاع المكشوفة والمقنعة، وعبر انشقاقات أو انقسامات داخلية. لم تندثر جميع الأحزاب الشيوعية ولكنها تأثرت كلها بموجة الاشتراكية الديمقراطية. ولقد سرَّعت تحالفاتها مع الرابحين، سواء كانت هذه التحالفات غبية أو انتهازية أو منحرفة، انحطاطها عوض أن تضمن بقاءها على قيد الحياة. إلا أن المجموعات التي أرادت الحفاظ على هويتها لم تنجح، وهي تكرر الصيغ القديمة، إلا في إضفاء الشرعية على انسلاخ المنشقين عنها، وفي تعزيز انزياح النزعة الإصلاحية نحو قبول النظام المهيمن على الرأي العام.

20. إن ما سمي "بالطريق الثالث" لا يستحق أدنى التفاتة. كما أن الحل الذي قدمه الثنائي "طوني بلير/أنطوني جيدنز"، والذي تبناه في وقت ما "جيرارد شرودر" (الذي كان يقدم نفسه كصاحب موقف أصيل داخل الاشتراكية الديمقراطية) هو حل فاشل. أما نوايا "اليسار الجديد" في فرنسا وبعض المرددين للكلام الفارغ، والتي كانت ظرفية وانتخابية أكثر مما كانت نظرية فهي نوايا فاشلة أيضا. وهناك أيضا الموقف القائل بوجوب استبعاد الاتجاهين المضرين بالإنسانية بنفس القدر من الضرر وهما الرأسمالية

والشيوعية. وتجسد هذا الموقف في رأيين تم التعبير عنهما بشكل متزامن. صدر الرأي الأول عن يوحنا بولس الثاني الذي أصبح من المؤكد أنه خاض صراعا من أجل الإطاحة بأنظمة أوروبا الشرقية، أما الرأي الثاني فصدر عن الشيخ الترابي الذي يعتبر ملهما وموجها لإسلام متشدد، وربما لإرهاب كان سيتخذ الولايات المتحدة هدفا له. وكانت النتائج التي استخلصاها معا من رفضهما المشترك مختلفة بطبيعة الحال. فالأول يرى في ذلك انتصارا للكنيسة والثاني يرى في ذلك انتصارا للإسلام. أما الخاصية المشتركة بينهما فهي: الأصولية.

21. ويمكن أن يتم التنويه بالتنظيمات التي تعلن انتماءها للفكر التروتسكي، والتي اعتزت بكل مشروعية، غداة سقوط الجدار، بموقفها المعادي للستالينية والذي اتخذته في وقت جد مبكر. لم تنجح هذه التنظيمات في أن تفرض نفسها في الساحة السياسية، وبالخصوص في فرنسا، بعد عدة سنوات من التواجد (بداية 2000) إلا اعتمادا على فشل سياسات الاشتراكية الديمقراطية، هذا الفشل الذي يعتبر مؤشرا عن وجود عوائق تخص الظرفية توقعتها تحليلات تلك التنظيمات قبل حدوثها. كما نعرف أنه لم توجد تاريخيا أية تجربة سياسية لهذا التيار التروتسكي.

22. قدم سمير أمين في تحليله للرأسمالية العجوز حصيلة أساسها الإفلاس فبعدما "استنفذت النماذج الثلاثة (أي

النموذج الغربي، والنموذج السوفييتي، ونموذج الدولة الوطنية الحديثة في دول الجنوب) مؤهلاتها التنموية، انهارت دون أن تكون قد تشكلت بوضوح وانسجام بدائل جديدة تسمح للدول والشعوب والأمم من الذهاب إلى أبعد مدى".(33)

هوامش:

1- "الماركسية، الثورة و"منظر الأمل"، أنظر:

Utopie critique, n° 1, Paris, ed. Syllepse.

2- آخر مثال حديث العهد بفرنسا هو التقرير الذي أعدته "مؤسسة الأب بيار" في مارس سنة 2003 والذي يقدر عدد طلبات السكن الاقتصادي بمليون وستمائة وأربعين ألف طلب ويكشف عودة سكن الصفيح للوجود.

3- أنظر:

Loïc Wacquant, Les prisons de la misère, Paris, Raisons d'agir, 1999…

4- أنظر:

Marie—France Hirigoyen, Paris, Syros éd., 1998.

5- أنظر:

Paul Ariès, Paris, Editions Golias, octobre 2002.

6- أنظر:

Christophe Dejours, Paris, Le Seuil éd., 2000.

7- أنظر:

Marie Muller, Paris, Fayard éd., 2002

8- أنظر:

Chritian Larose et Michel debout, Paris, Ed. de l'Atelier, 2003.

9- أنظر:

Cf. Le Monde du 11 févr. 2003 et D. Linhart avec B. Rist et E. Durand, Perte d'emploi, perte de soi, Paris, Eres éd., 2002

10- بول أرييس مرجع مذكور سابقا، يتعلق الأمر خصوصا بالتقرير الذي يحمل العنوان التالي: "العنف في مجال الشغل"، جونيف، 1999. أنظر أيضا بالنسبة للأرقام ماري ميللر، مرجع مذكور سابقا، وكريستيان لاروز (مؤلفة سيلاتيكس) والتي تكتب محذرة: "ستتضاعف الأساليب العنيفة، ويوما ما سوف يسوء الوضع، سوف يفقد العمال صوابهم وسينتهي الأمر بعمليات تصفية بالسلاح".

11- ماري ميللر، مرجع مذكور سابقا

12- نفس المرجع

13- أنظر:

Josette et Pierre Chiaroni, Données épidémiologiques des situations de mobbing au travail, d'après une enquête effectuée auprès des médecins du travail en région PACA, Paris, Masson éd., 2001 (cité par Marie Muller, ouvr. cit., p.143).

14- أنظر:

El Païs, février 2003.

15- أنظر:

Sabine Fortino, La mixité au travail, Paris, La Dispute éd., 2002.

16- بلغ عدد المنتحرين سنويا 800 منتحرا، وهكذا يمثل الانتحار في فرنسا السبب الثاني للموت عند الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين 15 و24 سنة بعد حوادث الطرق. أنظر:

P. Baudry, C; Blaya, M. Choquet et E. Debarbieux, Souffrances et violences à l'adolescence,
Paris, ESF éd., 2000. Xavier Pommereau, L'adolescent

suicidaire, Paris, Dunod éd., 2001 (2ème éd.);

17- أنظر:

Le nouvel économiste, n°1217, du 14 au 27 mars 2003; voir également La machine à punir, éd. cit.

18- أنظر:

Zbigniew Brzezinski, Le grand échiquier, L'Amérique et le reste du monde, Paris, Bayard éd., 1997.

19- أنظر:

dans l'énorme littérature sur la question, Richard Labévière, Les dollars de la terreur, Les Etats—Unis et les
islamistes, Paris, Grasset, 1999; Michel Collon, Monopoly, L'OTAN à la conquête du monde, Bruxelles, EPO
éd.,2000; du même avec Vanessa Stojilkocic, entretien au journal Le Soir de Bruxelles, le 22.03.03; Guy Spitaels,
L'improbable équilibre, L. Pire éd., Bruxelles, 2003

20- نجد الحكم الذي يرى ان "إنرون" وبن لادن ينتميان لنفس العالم عند روني باسي وجون ليبرمان (العولمة المالية والإرهاب) أنظر:

René Passet et
Jean Liberman, Mondialisation financière et terrorisme, Paris, Enjeux Planète, 2003. Voir aussi Collectif, L'Empire en
guerre, le monde après le 11 septembre, Paris, Le Temps des cerises, 2001.

21- نشرت لوائح باعثها التحدي ولا يحركها أي وازع سجالي منذ سنتين، أنظر:

"Un siècle d'interventions
militaires américaines, de Wounded Knee à l'Afghanistan. Liste établie par Zoltan Grossman", in Ziauddin Sardar et

Merryl Wyn Davies, Pourquoi le monde déteste—t—il l'Amérique ? (Why do People hate America ?), Paris, Fayard, 2002. La dernière en date est due au journal français La Croix dans un dossier intitulé "L'Amérique, de guerre en guerre", qui remonte au Mexique (1848) et va jusqu'à l'Irak (2003).

22- هذا الإعلان الذي وجه للعراق يمكن النظر إليه على إثر النتائج المحصل عليها في الكوسوفو: فالمافيات تنظم عمليات ضخمة في الاتجار بالمخدرات وشبكات البغاء، ونعرف أن الديمقراطية استتبت في البلقان، أنظر هذا المؤلف المهم المترجم مؤخرا للفرنسية، مع الإشارة إلى أن تجربة كارزاي في أفغانستان تستحق الدراسة:

La RFA dans la guerre au Kosovo, Paris, L'Harmattan, 2002).

23- فرنسوا غودمون، باحث في المركز الفرنسي للعلاقات الدولية، جريدة لوموند، 18-03-2003

24- تصريح الكاردنال إتشيغاراي، الناطق الرسمي باسم البابا، 20-03-2003.

25- لم تعرف فرنسا، كما شاهدنا ذلك، إبان الاستعداد لحرب الخليج الثانية (الفصل الأول من سنة 2003) "تعبئة قومية"، ولكن عل العكس من ذلك، عرفت "تعبئة مضادة للحرب"، لكن مع ذلك قبلت بنزع أسلحة العراق، بما في ذلك عن طريق استعمال القوة، ورخصت باستعمال مجالها الجوي للطائرات التابعة للأمم المتحدة والإنجليزية، وصوتت على الرفع من ميزانيتها في مجال الدفاع، وأرسلت خبراءها العسكريين في مجال الأسلحة النووية لقطر، ولا يمكنها في الأخير أن تتملص من مناخ التعبئة الأمنية العام. ولا يغيب اهتمام فرنسا بمصالحها: فشركة طوطال لا تريد أن تنتزع منها شركة شال وشركة إيسو امتيازاتها النفطية.

26- إن المسار المهني للورد ليفين هو مسار عميق الدلالة: فلقد شغل منصب مدير التسليح في وزارة الدفاع البريطانية، وعمدة لندن ورئيس "الدوتش بنك" بلندن.

27) لا علاقة لهذا الوصف بالغضب، بل هو وصف مشروع، لأنه يبتغي التأكيد على وجود عدة عوامل تبرر مصالح الحرب السياسية والاقتصادية، ومن بينها العوامل الذاتية من قبيل الانتقام (من صدام حسين) والثأر (باسم بوش الأب) وقد ألبست لباس المهدوية الصبياني.

28) أنظر:

The Aftershock, n°108, 1 mars 2003, Frenand Braudel Centre, Binghamton University.

29) أنظر مؤلف لوكاش الذي تم نشره سنة 1985 بالفرنسية في ترجمة غير موفقة لعنوانه حيث ترجم على الشكل التالي: "الاشتراكية والدَّمقرطة"، المنشورات الاجتماعية، 1989.

30) هذه السيرورة هي في طريق الترسيم، عبر الاتفاقية العامة المتعلقة بالتجارة والخدمات والتي لا تشير بالمرة للمرفق العمومي.

31) سيتم التفكير في الإجراءات القانونية وفي عمليات نقل الكفاءات التي ستؤسس الجهوية في تجاهل تام لدساتير الدول الأعضاء.

32) أنظر جورج لابيكا، "الاشتراكية الديمقراطية ومجالها الهش"، ضمن العدد الذي خصصته "فيتور أنتيريور" للسياسة في فرنسا، 1995. وأذكّر بموقف إرنست بلوخ من الاشتراكية الديمقراطية حين قال: "تتجاهل الاشتراكية الديمقراطية أن الاشتراكية تفترض الثورة، لأن غياب الثورة يسمح بميلاد رأسمالية الدولة". أنظر مؤلف إرنست بلوخ:

Le Principe Espérance, t, II, Paris, Gallimard, 1982, p. 542.

33) أنظر مؤلف فاوستو بيرتينوتي وألفونسو جياني الذي يحمل عنوانا بليغا جدا هو التالي: "هذه الأفكار التي لا تموت"، باريس، 2001، منشورات لوتان دو سوريز.

اليَسارُ العَالمِيُ بيْنَ فشَل الأمَمِياتِ والبَحْثِ عنِ المَرْجِعيّةِ

الوحْـدة العُـمالية والوحْـدة السِـياسـيَة

اختتمَ كارل ماركس (1818-1883) وفريدريك إنجلز (1820-1895) كتابهُما "البيان الشيوعي"، الذي صدرَ سنة 1848، بالجملة الشهيرة التالية: "يا عمال العالم اتحدوا"(1). صارت هذه الجملة منذ ذلك الحين شعارا عالميا يجسد بكثافة أحد الأهداف الأساسية للمشروع الماركسي الذي هو وحدة العمال على الصعيد العالمي. هذه الوحدة التي ينبغي عدم خلطها بوحدة الفاعلين السياسيين اليساريين ووحدة هيئاتهم التنظيمية.

وإذا كانت الفكرةُ اليسارية، التي هي الفكرة الثورية المعبر عنها من خلال فكر كارل ماركس وأتباعه، فكرةً كونيةً تكتسبُ طابعها الكوني من كونية الاستغلال، فإن مشروع اليسار هو مشروع عالمي يستجيب في عالميته هذه

لعالمية الرأسمالية وتطوراتها المتتالية من استعمار وامبريالية وعولمة.

وبالرغم من أن لينين قد استعمل شعارا آخر يستجيب للتحالفات التي فرضتها مرحلة حركات التحرر الوطني والحروب الامبريالية، وهو الشعار الذي يقول: "يا عمال وأشخاص الأمم المضطهدة اتحدوا"، فإن شعار ماركس وإنجلز ظل الشعار المعبر عن أهمية الطبقة العاملة في التغيير. ولقد استعملَ بعض الماويين الشرقيين شعار لينين، كما استعمِلَ هذا الشعار في المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية (الأممية الثالثة) سنة 1920.

وإذا كانت وحدة العمال ضرورة لانتصارهم، فإنها لا تتم بمعزل عن وحدة التنظيمات اليسارية المعبرة عن مصالحهم والتي يُفترض فيها أنها ستقودهم للنصر من جهة، ومن جهة أخرى، لا تحل محلهم وتستبد بمشروعهم وتحكم باسمهم.

ولقد كانت وحدة العمال ووحدة اليسار على الصعيد العالمي موضوع خلافات وصراعات، وأدت إلى حروب إيديولوجية وانشقاقات واتهامات بالخيانة واتهامات مضادة بنفس التهمة. وكان أهم عائق أمام إنجاز وحدة اليسار ووحدة العمال: العصبوية، أي النزوع نحو الانقسام والتشرذم والتشتت.

كان المثقفون والمناضلون المحترفون يرغبون دوما في الحلول محل المنتِجين المستغَلين، ويستغلون لتحقيق ذلك مواقعهم في القيادات المركزية للحركات السياسية اليسارية. ولقد نعتت روزا لوكسمبورغ (1871-1910) تلك المواقع "بالمركزية المتآمرة والدسّاسة التي تعني خضوع فروع الحزب لهيئته المركزية، وتوسيع نفوذ وتحكم هذه الهيئة إلى أقصى هوامش الحزب"(2)، وتشبه أعضاء اللجنة القيادية الحزبية ببهلوانيين بارعين لا يدركون أن الموضوع الوحيد الذي يهتم به القادة هو "الأنا" الجماعية للطبقة العاملة التي تطالب بالحق في أن "ترتكبَ الأخطاء وتتعلمَ من ديالكتيك التاريخ"(3). لقد أدت المركزية في التنظيم إلى تضخيم دور القيادة. ولقد عبر عن هذا الأمر بوضوح هرمان غورتر Herman Gorter في رسالة بعث بها إلى لينين سنة 1921 يقول فيها: "كنتم تريدون التنظيم فحصلتم على الفوضى، كنتم تريدون الوحدة فحصلتم على الانشقاق، كنتم تريدون القادة فحصلتم على الخونة، كنتم تريدون الجماهير فحصلتم على الطوائف"(4).

وهذا الأمر أكده العديد من الفاعلين البارزين في الحركة الشيوعية والعمالية. تقول سوزان فوت(5) Suzanne Voute (1922-2001): "لقد سادت حملات الوشاية ضد المعارضين، وتحولت أسرار أكاذيب الحزب إلى نظام، وأخفيت المنعطفات الكبرى وراء استمرارية الواجهة، وعمم

منهج العقوبات التأديبية، والترقيات، وتخفيضات الدرجات والرتب... والطرد بتهمة عدم الانضباط لسلطة حزبية آنية نصبت نفسها بنفسها على المناضلين"(6).
كان المناضلون "أمواتا بالنسبة للحزب" كما عبر عن ذلك جاك كامات(7). وسادت القاعدة التي لخصها راوول فيكتور كما يلي: "إذا رفضت أن تصبح رفيقَ الدرب فستتحول إلى طفيليات أو إلى جُثة"(8).

هل هناك يسار عالمي؟

تشير عبارة اليسار العالمي إلى تيارات متعددة، نُسجت فيها بينها علاقات عداوة وصدام، ونشبت بينها حروب، كما عرفت في بعض الأحيان كيف تعقد تحالفات ظرفية. فاليسار العالمي قد يكون يسارا اشتراكيا، أو شيوعيا، أو تروتسكيا، أو يسارا على هامش اليسار الكلاسيكي.
يرتبط الاهتمام باليسار العالمي في عصرنا بالعولمة. وكأنها هي العامل الحاسم الذي سيعمل على إحيائه. وهذا يعني في نفس الوقت أنه غير موجود أو ضعيف. فالمؤرخ ماسيمو سالفادوري Massimo Salvadori (ازداد سنة 1936) يرى أن هناك "فرصة للاشتراكية في عصر العولمة"، وأن تدويل التطور الاقتصادي يفرض على "الأممية الاشتراكية" أن "تعمل على تصدير الحقوق الاجتماعية إلى الأماكن التي

تعاني فيها اليد العاملة من الاستغلال الرأسمالي الأكثر قسوة والأقل مدنية". في حين يشير الفيلسوف يورغن هابرماس Jürgen Habermas (ازداد سنة 1929) إلى وجود جوابين على العولمة: إما مواكبة الليبرالية الجديدة، بالدفاع عن سياسة اقتصادية للعَرض وعن دولةٍ مقاولةٍ تتلاءم مع السوق العالمية وتتخلى عن حماية المجتمع، وإما تبني سياسة التخندق، أي تبني سياسة الحماية. ويسجل أن الخيار الثاني يضعف المثل الديمقراطية الكونية المجسدة للمساواة، ويغذي العداء تجاه التنوع الثقافي، كما أن فشله حتمي بسبب سيطرة اقتصاد ليبرالي تَـنْـتُـجُ قواعدُه بصفة جزئية عن المفاوضات السياسية بين الدول. وتكمن أهمية اليسار العالمي في إعطاء الأولوية للسياسة على السوق، فالسياسة هي التي يجب أن تحدد الشروط التي تسمح بتحرير مجال السوق. وهذا الاختيار يحتاج لتكتلات سياسية موسعة قادرة على "تعويض خسارة الدولة للسيادة الاقتصادية دون التفريط في الشرعية الديمقراطية".

أما عالم الإجتماع أولريش بيك Ulrich Beck (1944-2015) فيتحدث عن وجود "قوة مولدة للتعدد داخل اليسار" في مواجهته للعولمة، بحيث نجد يسارا يتبنى مواقف حمائية، ويدافع عن الدولة الوطنية الضامنة للأمة والديمقراطية والحماية الاجتماعية، ويسارا ليبراليا جديدا يعتقد أنه قادر على تسريع تدويل الدولة الوطنية عبر دمجها في العلاقات

الاقتصادية الدولية والمنظمات التي تعمل فيما وراء الحدود الوطنية، ويسارا عالميا لم يعد يؤمن بالدولة الوطنية ويعمل على توسيع مجال الديمقراطية في طار هوية وشبكات عالمية، وهو اليسار الذي يناضل من أجل عولمة أخرى، عولمة بديلة.

لا يمكن إثارة مسألة اليسار العالمي دون التطرق لدور أوروبا في تشكيله في نظره. فعلى شعوب هذه القارة أن تقوم بدور تاريخي دون أن يكون الهدف من ذلك هو الهيمنة، كما كان شأن الاستعمار الذي انطلق منها في الماضي. إن أوروبا مهددة اليوم بفقدان مكانتها ودورها في اقتصاد العولمة. كما أن عليها نشر القيم الكونية للأنوار، ومواجهة تحديات "نتائج النمو الاقتصادي"، والتصدي لتشكل "أولغارشية عالمية". وفي هذا السياق يتحدث الفيلسوف والمنظر للإيكولوجية السياسية "أندريه غورز" André Gorz (1923-2007) عن "فضاء أوروبي إيكولوجي واجتماعي". واقترح السياسي والاقتصادي الاشتراكي الألماني بيتر غلوتز Peter Glotz (1939-2005) فكرة "الولايات المتحدة الأوروبية". ولا يمكن لليسار أن يواجه العولمة، حسب هذا الأخير، إلا بالاعتماد على إستراتيجية أوروبية ترتكز على سياسة صناعية نظرا لان الدول فقدت السلطة على تدبير العمليات الاقتصادية. ويقر بأنه لا وجود ليسار سياسي أو نقابي أوروبي. ويدعو إلى ضرورة تشكيل "منظمات جديدة

تحمل مشروع الديمقراطية الاجتماعية على الصعيد العالمي".

تكمن ضرورة اليسار العالمي، حسب أولريش بيك Ulrich Beck، في تعرض المجتمع العالمي لثلاثة أخطار: هي الأزمات الإيكولوجية، والأزمات المالية، والشبكات الإرهابية. فمواجهة هذه الأخطار وخاصة الشبكات الإرهابية تتطلب تدخل الدول الشيء الذي يتعارض مع طبيعة الليبرالية الجديدة، وهذا يعني أن هذه المهمة لن تقوم بها إلا "الدول-الأمم"(9) عبر تبنيها لعمليات "التخلص الذاتي الفعال من العوائق الوطنية". ولقد تم تجريب هذه الطريقة في محاربة الجرائم المالية، ومنع الشركات متعددة الجنسيات من أن تصبح دولا تسيطر على بعضها البعض وتخرب بذلك أنظمة الحماية الاجتماعية والبيئية.

أما المنظر السياسي البريطاني دافيد هيلد David Held (ازداد سنة 1951) فيرى أن قبول العولمة يحتاج "لاشتراكية ديمقراطية عالمية" و"لديمقراطية عالمية". وإذا كان الاشتراكيون الديمقراطيون الوطنيون قد قننوا، في السابق، الرأسمالية من خلال إيجاد توافق ما بين الرأسماليين والعمال والدولة، الشيء الذي أدى إلى وجود "ليبرالية مؤطَرَة" تعترف بفضائل السوق وتصحح نتائجه الهدامة عن طريق سياسة اجتماعية تدخلية، فإن ذلك التوافق لم يعد ممكنا نظرا لقوانين العولمة. فالجواب اليوم يجب أن يكون

عالميا، وهو يتمثل في الاشتراكية الديمقراطية العالمية التي بإمكانها أن توحد الليبراليين المعتدلين ومناهضي العولمة الإصلاحيين على أساس مبادئ المساواة في القيمة الأخلاقية والحرية، ومن أجل سيادة الحق والعدالة الاجتماعية، والفعالية الاقتصادية والتوازن الإيكولوجي على الصعيد العالمي.

إن الأوضاع الاقتصادية في عصرنا ملائمة، في نظر الكثير من الباحثين، لتشكيل اليسار العالمي. فهذه الأوضاع تتميز بتفاقم البطالة وتراكم الديون وسيادة سياسات التقشف من جهة، وحماية البنوك من طرف الدول. إضافة إلى وجود رأي عام عالمي ضد تضخم مركزة الثروات، وضد الحكومات المرتشية، والتنديد بالطبيعة غير الديمقراطية للحكومات بالرغم من وجود ظاهرة تعدد الأحزاب، واندلاع حركات احتجاجية على الصعيد العالمي: حركة "الغاضبون" Indignados في إسبانيا، الحركات الاحتجاجية في بعض بلدان الشرق الأوسط وشمال إفريقيا (والتي سماها الإعلام المحافظ "ثورات الربيع العربي" علما بأنها ليست بالثورات وليست حركة عربية خالصة لاستحالة ذلك)، حركة الوقوف ليلا nuit debout بفرنسا، حركة المظلات Umbrella Movement بهونغ كونغ، حركة "احتلوا وول ستريت" بنيويورك(10).

أقر ماسيمو داليما Massimo D’Alima، الوزير الإيطالي السابق، بفقدان "الأممية الاشتراكية"، التي هي منظمة تنتمي للقرن الماضي، لأي وجود فعلي، ولتحولها إلى مجرد "نادي للأحزاب الصغيرة بعدما هجرتها الأحزاب الكبرى". وطالب كبديل لها بتشكيل "تجمع عالمي للتقدميين" يواجه قوة المال العظمى العالمية، هذه القوة التي تحالفت مع العولمة وأجهزت على "المشروع التضامني لليسار الذي ظل حبيس الدولة-الأمة".

تحتل العولمة ومواجهتها مكانة مركزية في مشروع اليسار العالمي. بل إن إيجاد إستراتيجية لمواجهة العولمة لا تنفصل عن إيجاد أداة تنظيمية وسياسية عالمية تقود وتنفذ تلك الإستراتيجية. يرى عالم الاجتماع بيير بورديو Pierre Bourdieu (1930-2002) أن "أسطورة العولمة" مكنت مالكي الرأسمال وإيديولوجييهم من تحويل الخيار السياسي القاضي بالتخلص من "الدولة الاجتماعية" إلى عملية محسومة لا رجعة فيها. لذلك فالرد عليهم يتمثل في الدفاع في نفس الوقت عن "الدولة الوطنية وعن الدولة العابرة للأوطان"، وفي بناء "كنفدرالية نقابية موحدة" تجسد مطالب "حركة اجتماعية أوروبية". أما عالم الاجتماع والمنظر السياسي البريطاني بول هيرست Paul Hirst (1946-2003) فيرى الحل في عمليتين تدعم الواحدة منهما الأخرى وهما: التنسيق الموسع للسياسات

الاقتصادية للدول، وظهور مجتمع مدني عالمي انطلاقا من الجمعيات. ويرى كل من بورديو وهيرست ضرورة توفر قوى اليسار على إستراتيجية على المستوى الأوروبي والعالمي تربط ما بين العمليتين السابقتين.

اليسار في العالم: انتصارات التشرذم

يخوض اليسار الجذري في معظم بلدان العالم نضالات ومعارك عديدة كأفراد ومجموعات صغيرة على عدة مستويات: فضح زيف إيديولوجيات الأنظمة القائمة، وإيديولوجيات مختلف الانتهازيين من اليمين واليسار الكلاسيكي، دعم نضالات العمال بالصيغ الممكنة، التصدي لفضح مختلف الخروقات والاعتداءات المرتكبة في مجال حقوق الإنسان وخاصة الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية، كما يقوم بتقديم بدائل يسارية يراها جديرة بالتصدي للرأسمالية العالمية والأنظمة التابعة لها، ويكثف وجوده، رغم ضعف عدده، في المنظمات النقابية ومنظمات المجتمع المدني العاملة في مجال حقوق الإنسان ومناهضة العولمة... لذلك لا يمكن الحديث عن انتصارات واضحة المعالم لهذا اليسار، لأن الانتصار الأساسي الذي حققه ولازال يحققه هو استمراره في ظل القمع والتعتيم وسيادة نزعة اللاتسييس، وانحطاط المستوى المعرفي

والثقافي والدراسي للشباب، وانتشار عادات الاستهلاك والقيم السلعية والمُتعية...

أما اليسار الكلاسيكي، والتنظيمات اليسارية الجديدة التي تبنت أطروحاته مع تقديم المنتج اليساري الإصلاحي في حلل جديدة في الشكل، فيمكن القول أنه حقق عدة انتصارات في إطار مشروعه القائم على المشاركة في إدارة شؤون الدولة الرأسمالية في المركز الرأسمالي ومحيطه. وهي انتصارات لحظية تؤكد في نفس الوقت، لمن لازال يحتاج لتأكيد، أن إصلاح الرأسمالية من داخلها أمر يكاد يكون مستحيلا.

إذا أخذنا سنة 2015 كنموذج لتقييم عمل الحركات اليسارية على الصعيد العالمي فيمكن أن نسجل ما يلي:

- اليونان: انتصار حزب "سيريزا" Syrisa اليوناني (تحالف اليسار الراديكالي) في الانتخابات

- اليونان: مساندة الشعب اليوناني لهذا الحزب اليساري عبر استفتاء عام

- اليابان: تحقيق الحزب الشيوعي الياباني أفضل نتيجة انتخابية له (انتخابات البلديات) منذ عشرين سنة.

- إسبانيا: تحقيق تحالفات اليسار حول حركة "نحن قادرون" Podemos نجاحات هامة في الانتخابات في مدريد والمدن الكبرى.

- أمريكا (نيويورك): مشاركة حوالي خمسة آلاف ناشط في منتدى اليسار الذي يضم ماركسيين واشتراكيين ديمقراطيين وإيكولوجيين وأكاديميين...

- المكسيك (مكسيكو سيتي): انعقاد أعمال الدورة 21 لمنتدى ساو باولو لقوى اليسار في أمريكا اللاتينية والذي شارك فيه 104 حزبا.

- بريطانيا: فوز اليساري البريطاني جيرمي كوربن Jeremy Corbyn بزعامة حزب العمال

- النيبال: تبني دستور جديد لا ينص على أن الهندوسية هي دين الدولة، وتحقيق "حركة الأنصار الشيوعية" (ذات توجه ماوي) لانتصار انتخابي في إطار تحالفات سياسية.

- البرتغال: انتصار قوى اليسار في الانتخابات (وهي الحزب الاشتراكي، وكتلة اليسار، والحزب الديمقراطي المتحد الذي يتكون من تحالف الحزب الشيوعي البرتغالي وحزب الخضر).

تركيا: انعقاد اللقاء الأممي السابع عشر للأحزاب الشيوعية والعمالية العالمية، حضره 59 حزبا شيوعيا وعماليا من بين 92 حزبا وجهت لهم الدعوة.

إيطاليا: تكون كتلة يسارية جديدة من رحم البرلمان الإيطالي

ألمانيا: انعقاد المؤتمر 21 للحزب الشيوعي الألماني، بمشاركة 2_ حزبا شيوعيا وعماليا عالميا.

النموذج الكلاسيكي لعالمية اليسار: الأمميات

ارتبط الفكر اليساري بكل مكوناته منذ تشكله ونضجه في القرن التاسع عشر بسعيه ليكون عالميا كاستجابة نضالية لعالمية الاستغلال. ولقد تجسد عمل المنظرين الأوائل منذ كارل ماركس وبرودون وباكونين وغيرهم في العمل على إنشاء هيئات يسارية عالمية، عمالية وسياسية تمثلت في الأمميات.

- الأممية الأولى (1864-1872): عُـرِفت بـ"الجمعية العالمية للعمال"، وضمت في صفوفها أنصار جوزيف برودون Joseph Proudhon (1809-1865) الرافضين لتسييس الحركة العمالية، وأنصار فردناند لاسال Ferdinand Lassalle (1825-1864) الذين يتبنون نموذج الدولة العسكرية، ولاجئين سياسيين، وشيوعيين ماركسيين، إضافة إلى عمال فرنسيين وإنجليز وألمان وإيطاليين. وكانت لها عدة فروع في أوروبا وأمريكا الشمالية رغم القمع (سويسرا، بلجيكا، فرنسا، ألمانيا، إيطاليا، إسبانيا، هولندة، النمسا، الولايات المتحدة الأمريكية). احتد الصراع في مؤتمر لوزان (1867) بين الماركسيين والبرودونيين حول برنامج اقترحه برودون يرتكز على إبعاد العمال عن السياسة، ولم يتم تبني موقف برودون، وسيطرت وجهة نظر الماركسيين.

وكان الخلاف حادا في مؤتمر بروكسل (1868) بين ماركس من جهة وبرودون ولاسال من جهة أخرى. واحتدم الخلاف في مؤتمر بال (1869) بين ماركس وميخائيل باكونين Mikhaïl Bakounine (1814-1876) الذي طالب بتبني شعار إلغاء الدولة. انهارت الأممية الأولى بعد تجربة كومونة باريس (التي استمرت من 10 مارس 1871 إلى 29 مايو 1871) بسبب تناقضاتها الداخلية. وتم طرد باكونين في مؤتمر لاهاي (1872)، وتبنت الأممية قرار تشكيل حزب سياسي للعمال، وتم نقل مقرها إلى نيويورك تحت ضغط ماركس.

- الأممية الثانية (1889-1919): هي الاتحاد العالمي للأحزاب الاشتراكية. تشكلت من اجتماع عدة أحزاب عمالية واشتراكية وديمقراطية. ولقد هيمن موضوع "التوجه الذي عليها تبنيه وكذا دور الأحزاب الاشتراكية المنتمية إليها" على نقاشات مؤتمراتها (مؤتمر بروكسيل المنعقد سنة1891، مؤتمر زيوريخ المنعقد سنة 1893، مؤتمر لندن المنعقد سنة 1896). دافع غيورغي بليخانوف Gueorgui Plekhanov (1856-1918) عن ضرورة مناهضة الحرب العالمية، ودافع الماركسيون عن أطروحة ديكتاتورية البروليتاريا وتأسيس أممية شيوعية ماركسية دون أن يتمكنوا من إقناع المشاركين في مؤتمر لندن بأطروحاتهم. وفي مؤتمر باريس (1900) أيد كارل كاوتسكي Karl Kautsky (1854-1938) فكرة مشاركة الأحزاب الاشتراكية

في الحكومات البرجوازية. واقترحت روزا لوكسومبورغ Rosa Luxemburg (1871-1919) أن تعارض الأحزاب الاشتراكية الممثلة في البرلمان الاعتمادات المخصصة للحرب الاستعمارية. وصار موضوع الحرب مركزيا في مؤتمر شتوتغارت (1907)، واقترحت روزا لوكسومبورغ ولينين "تحويل الحرب الاستعمارية إلى حرب أهلية" لكن اقتراحهما رفض. ورفض بعض قادة الأحزاب الاشتراكية، مثل إدوارد برنشتاين (1850-1932)، معارضة التوجه العسكري لحكوماتهم. ويمكن أن نخلص إلى أن الأممية الثانية عرفت صراعات بداخلها بين ثلاث تيارات على الأقل: تيار يميني يمثله إدوارد برنشتاين، وتيار وسطي يمثله كارل كاوتسكي، وتيار راديكالي يمثله أوغست بيبل August Bebel، وكارل ليبكنخت Karl Liebknecht، وروزا لوكسومبورغ ولينين. ولقد تعرضت الأممية الثانية للانشقاق بعد نهاية الحرب العالمية الأولى.

- الأممية الثالثة (1919-1943): تسمى أيضا بالأممية الشيوعية (والكومِنترن Comintern وهي التعبير المختصر لـ The Communist International) تأسست سنة 1919 في موسكو بقرار وتوجيه من لينين والبلاشفة على يد ثمانية أحزاب شيوعية وعمالية موالية للنظام السوفييتي(11). ومن الشخصيات السياسية الشيوعية البارزة التي ساهمت في تأسيسها: لينين، روزا لوكسومبورغ، ليون

تروتسكي، كلارا زتكين (1857-1933)، نيكولاي بوخارين (1888-1938)، كارل راديك (1885-1939). ولقد سيطر على أعمالها وتوجهاتها التوجه اللينيني من سنة 1919 إلى سنة 1922. ثم سيطر عليها التوجه الستاليني من سنة 1924 إلى سنة 1935. وفي مايو 1943 تم حلها تحت مبرر أن شكلها التنظيمي لم يعد ينسجم مع واقع الأحزاب الشيوعية وعوضها ستالين بـ "الكومنفورم Kominform الذي كان مجرد مكتب اتصال(12)، وظل يعمل من سنة 1947 إلى سنة 1956. ولقد استعملت لتصفية الحسابات مع المخالفين عبر الإقصاء والتطهير(13). وينسجم موقف ستالين القاضي بالتخلص من الأممية الثالثة مع أطروحته التي هي "بناء الاشتراكية في بلد واحد".

- الأممية الرابعة (تأسست سنة 1938): أسسها ليون تروتسكي Léon Trotski (1879-1940). كان مقرها الأول بباريس. ولما تم اغتيال تروتسكي في المكسيك سنة 1940 تعرضت لعدة انقسامات من سنة 1940 إلى سنة 1953. وتم القيام بإعادة توحيد فروعا سنة 1963، وهي المحاولة التي أسفرت عن تأسيس "الأممية الرابعة-السكرتارية الموحدة (QISU). ومن أبرز قياديي هذه الأممية: جوزيف هانسن Joseph Hansen (1910-1979)، وبيير فرانك Pierre Frank (1905-1984)، وإرنست ماندل

Ernest Mandel (1923-1995)، وميشيل بابلو Michel Pablo (1911-1996).

وتأسست سنة 1982 "الرابطة الأممية للعمال-الأممية الرابعة" (LIT-QI) انطلاقا من تجارب التروتسكيين في أمريكا اللاتينية بقيادة ناهويل مورينو Nahuel Moreno (1924-1987). ويعتبر التروتسكيون أن الأممية الرابعة هي "حزب البروليتاريا العالمية للثورة الاشتراكية". وهي تستجيب لتحليلهم للأزمة التي يعاني منها اليسار والتي هي أزمة "قيادة بروليتارية" تعمل على فضح "التيارات الإصلاحية"، وتتشبث بالأطروحة التي تقول أن الطبقة العاملة هي الطبقة الوحيدة التي بإمكانها إنجاز "الثورة البروليتارية". كما يرون أن الأممية الثالثة كانت تعبيرا عن مصالح "الطبقة المتوسطة والارستقراطية العمالية"، وأنها تخلت عن الأممية لصالح القومية. وتحدد الأممية الرابعة مرجعتها باعتبارها "ماركسية لينينية تروتسكية"، وترتكز على برنامجها الذي أعده ليون تروتسكي تحت عنوان "البرنامج الانتقالي، احتضار الرأسمالية ومهام الأممية الرابعة". وهي تعبير أيضا عن محاربة الستالينية وأطروحة "بناء الاشتراكية في بلد واحد"، وتطرح بديلها الذي هو "الثورة العالمية والدائمة".

"الوحش الوديع" ومستقبل اليسار:

لم يعد اليسار الاشتراكي، حسب الكاتب الإيطالي رفائيل سيمون Raffaele Simone (ازداد سنة 1944)، حاملا لأي مشروع كبير يتناسب مع خطورة المرحلة وحجمها. ومما يزيد وضع اليسار تعقيدا كون اليمين يتميز عنه بفهمه واستيعابه لعصرنا الذي يتميز بالفردانية، والغلو في الاستهلاك، والعجلة في كل شيء، والارتهان لوسائل الإعلام. لقد عرف اليمين كيف يكون نفعيا وبراغماتيا بدون الإحالة على إيديولوجية علنية. ولقد لجأ اليمين إلى التحالف مع أرباب المقاولات والمالكين لوسائل الإعلام من أجل تسويق مجتمع "الاستمتاع"، والدفاع عن مصالح الناس على المدى القصير، والوعد بتحقيق الأمن. إن مشروع اليمين هذا يسميه رفائيل سيمون "**بالوحش الوديع**"(14). يقول في وصفه له: "يصف ألكسيس دو طوكفيل Alexis de Tocqueville في كتابه عن الديمقراطية في أمريكا شكلا جديدا من السيطرة يندمج في حياة المواطنين الخاصة، مطورا نزعة تسلطية وتحكمية أكثر اتساعا وأكثر وداعة، تحط من قيمة حياة الناس دون أن تعذبهم. هذه السلطة الجديدة لم تعد الكلمات القديمة، مثل الاستبداد والاضطهاد والتعسف، تعبر عنها بشكل ملائم. وتعمل على تحويل المواطنين، الذين خاضوا صراعات من أجل الحرية، إلى حشود من الأفراد المتشابهين الذين

يشتغلون بلا كلل من أجل الحصول على متع سوقية"(15)، ويضيف قائلا أن "هؤلاء الناس يضعون مصيرهم في يد سلطة ضخمة ووصية عليهم، تتحمل مسؤولية ضمان تحقيق متعهم، وتركز كل جهودها لتثبيتهم في طفولتهم طيلة حياتهم. فهي ترغب في أن يستمتع المواطنون حتى لا يفكروا إلا في المتعة، فهي تهتم بأمنهم وتيسر حصولهم على المتعة، وتقوم بتليين إراداتهم وإخمادها وسلب عقولهم"(16).

يذكر رفائيل سيمون(17) أن "الوحش الوديع" فرض نفسه على الحداثة عبر ثلاثة واجبات هي:

- الواجب الأول هو الاستهلاك الذي هو مفتاح النظام، فالسعادة تتحقق بالاستهلاك وفي الاستهلاك والشراء والتسوق والحصول على المال بأبسط وأيسر الطرق، وتفضيل التبذير على التوفير، والشراء على الرزانة، والأنانية الفردية على احترام البيئة.

- الواجب الثاني هو الاستمتاع، واعتبار العمل أمرا ثانويا وبدون قيمة، وتفضيل أوقات الفراغ (والعطل والتنزه والألعاب والبرامج التلفزيونية التي تتحدث عن المشاهير) عن العمل. فالاستمتاع ينظم إيقاع حياة الأفراد ويعيد تشكيل معالم المدن التاريخية والطبيعية ويفرض تشييد الفنادق الضخمة والمراكز التجارية. كما يحتل التلفزيون والألعاب الإلكترونية والحواسيب مكانة مركزية في الحياة. بل إن الأحداث

المأساوية تتحول، حسب منطق الاستمتاع هذا، إلى مشاهد للفرجة، وإلى ألعاب فيديو. وبهذه الطريقة ينسى الأفراد الأزمات الاقتصادية والمضاربات المالية وخطط التقشف وانتهاكات الحريات...

- الواجب الثالث هو عبادة الجسد الشاب، وصَبْيَنَة الراشدين. فـ"الوحش الوديع" يرعب الأشخاص الذين يعانون من السمنة والتجاعيد وتقدم السن، فصار تجديد الشباب صناعة ثقيلة، بحيث نرى أن الناس يلهثون في جميع أنحاء الأرض بحثا عن أنظمة الحمية، وينفقون الثروات من أجل الحصول على مستحضرات التجميل لتبدو الوجوه ناعمة ومراهقة، ويستثمرون في جراحة التجميل وعمليات شد الوجه (الليفتنغ) وحقن البوتوكس...

يلاحظ رفائيل سيمون أنه "لم يوجد في التاريخ البشري مجتمع يخضع لاستبداد الجسد والشباب مثل المجتمع المعاصر"، وأن لهذا الاستبداد نتائج أخلاقية وخيمة على العلاقات بين الأفراد تتمثل في سيادة "نزعة أنانية واستعلائية وصبيانية تحتقر التعب والجسد العليل والمسنين والبشعين والمعاقين، وتحتقر كل ما يُفَنّدُ أسطورة الشباب الخالد".

لم يتمكن اليسار من امتلاك "فهم حقيقي لهذا الانقلاب الحضاري المتمثل في انتصار الفردانية والاستهلاك"، وبقي "متشبثا بأفكاره الاجتماعية القديمة". وهذا يعني بكل

بساطة أنه "خسر المعركة". ومن الغريب أن الأزمة الخانقة على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي لم تدفع الناس للانضمام لليسار. وسبب ذلك حسب رفائيل سيمون هو "خضوعهم للوحش الوديع".

قد يكون "الوحش الوديع" هو إيديولوجية العولمة التي استفادت استفادة قصوى من الوسائل السمعية البصرية ومن الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي، ومن تقادم صيغ التعبير اليساري عن أطروحات اليسار إضافة إلى تشرذمه وإنهاك نفسه بالحروب الداخلية.

وإذا كان اليسار العالمي لازال مشروعا مستقبليا، سواء تعلق الأمر باليسار الاشتراكي الديمقراطي، أو اليسار الشيوعي أو يسار الأممية الرابعة، فهل من الممكن أن يعرف وعي اليساريين طفرة نوعية تجعلهم يجدون طريقهم نحو تشكيل قوة يسارية عالمية لمواجهةِ "ليفياتانِ"(18) عصْرِنا: العولمة؟

هوامش:

(1

نقشت هذه الجملة على قبر كارل ماركس في مقبرة "هايغات" Highgate بلندن.

(2

- Rosa Luxemburg, Marxisme contre Dictature, Spartacus, Cahiers mensuels, Paris, 1946

(3

نفس المرجع.

(4

أرسل هرمان غورتر هذه الرسالة إلى لينين سنة 1921، بعدما أرسل له رسالته الشهيرة سنة 1920 تحت عنوان "رسالة مفتوحة إلى الرفيق لينين"، والتي تناول فيها الجماهير والقادة، المسألة النقابية، النزعة البرلمانية، الانتهازية في الأممية الثالثة. والرسالة منشورة في موقع الماركسيين:
https://www.marxists.org/francais/gorter/works/1920/00/gorter_19200000_1.html

(5

تعتبر "سوزان فوت" فاعلة وناشطة مهمة في الفرع الفرنسي لليسار الشيوعي الأممي من سنة 1943 إلى سنة 1950. وكانت أيضا عضوة في مجموعة "روبل" Rubel لنشر أعمال كارل ماركس في منشورات "لابلياد" La Pléiade. طردت من الحزب الشيوعي الأممي سنة 1981، وأسست: Cahiers du marxisme vivant.

(6

-Les leçons d'un éclatement, Cahiers du marxisme vivant, n°2, Toulon, 1994

(7

- Benjamin Lalbat, entretien avec Jacques Camatte, Bélaye, 2014, p. 20.

(8

مقال تحت عنوان: "على هامش عيد ميلاد، أكثر من 20 سنة من العصبوية الستالينية الجديدة..."، على الموقع التالي:
http://pantopolis.over-blog.com/2015/04/en-marge-d-un-anniversaire-vingt-annees-de-sectarisme-du-cc.html

(9
الدولة-الأمة: هي الدولة التي يوجد تطابق بينها وبين أمة توجد في مجال ترابي محدد ومعرّف وفق هوية مشتركة للسكان تمنح للأمة مشروعيتها. إنها مفهوم سياسي نتج عن تقاطع ما بين مفهوم سياسي وقانوني الذي هو الدولة وتصور يستمد معناه من الهوية وهو الأمة. تتميز الدولة-الأمة بممارسة نفوذ وسلطان يرتكز على السيادة المنبعثة من المواطنين. وحسب تعريف اليونسكو للدولة-الأمة، فإن هذه الأخيرة هي الدولة وقد أدمجت بداخلها أشخاصا لهم نفس الأساس الإثني والثقافي، لكن معظم الدول في الواقع هي متعددة الإثنيات.
(10
- حركة "الوقوف ليلا" Nuit Debout: حركة اجتماعية احتجاجية ظهرت في فرنسا في مارس 2016، تخترقها توجهات متعددة، بدون قائد ولا ناطق رسمي، ظهرت في باريس وانتشرت في عدة مدن فرنسية أخرى، كان محركها الأساسي الاحتجاج ضد تعديل قانون الشغل.
- حركة المظلات (المعروفة في الصحافة العربية بثورة المظلات): حركة احتجاجية ديمقراطية ظهرت في هونغ كونغ سنة 2014. سميت بهذا الاسم لأن المتظاهرين كانوا يستعملون المظلات لوقاية أنفسهم من الغاز المسيل للدموع. ولقد أطلق عليها في البداية اسم occupy central with love and peace (لنحتل مقر الحكومة المركزي بالحب والسِلم).

- حركة "احتلوا وول ستريت" (Occupy Wall Street, OWS)، حركة احتجاجية أمريكية اندلعت في نيويورك في شهري شتنبر وأكتوبر 2011.

(11

تأسست أممية أخرى، انطلاقا من بيان أصدره الحزب الشيوعي العمالي الألماني (KAPD) تسمى بالأممية الشيوعية العمالية سنة 1922، وكانت تعتبر نفسها على يسار الأممية الرسمية (الأممية الثالثة)، ولكنها ظلت عديمة الفاعلية.

(12

اسم "الكومنفورم" هو اختصار للعبارة الروسية التي معناها: "مكتب الإعلام الخاص بالأحزاب الشيوعية والعمالية".

(13

اجتمع تسعة وعشرون حزبا شيوعيا في صوفيا سنة 1995 وأحيوا الأممية الثالثة لكن تلك العملية كانت شكلية لا غير.

(14

- Le Monstre doux. L'Occident vire-t-il à droite ? Gallimard, 2010

(15

- Le Monde, 12-09-2010

(16

نفس المرجع.

(17

- Agir par la culture, n° 28, Hiver 2011

(18

ليفياتان Leviathan، وحش مذكور في الأساطير الفينيقية، وذكرته التوراة باعتباره وحشا بحريا. واستعمله طوماس هوبز Thomas Hobbes

للدلالة على الدولة في مؤلفه الذي يحمل نفس الكلمة كعنوان. واستعمل الكلمة أيضا الفيلسوف ألان Alain والشاعران رامبو وأبولينير والكاتب فيكتور هوغو.

مَارْكس وَصِراعَاتُ الْورَثةِ

دريدا، فوكو ودولوز والماركسية:

لم يتنكر كبار الفلاسفة المعاصرين لماركس (1818-1883) ولإرثه الفلسفي، ومن الصعب أن نجد عدوا قويا لماركس لا يقر بأهمية فلسفته وبكونها مكونا حاسما من مكونات الفكر النقدي الإنساني. فهذا جاك دريدا (1930-2004) الذي اشتهر بمفهومي التفكيك والاختلاف (كإرجاء ومغايرة) يصرح بعد ممارسته للتفلسف على طريقته لمدة 30 سنة، في سجاله مع الذين اعتبروه معاديا للماركسية، قائلا: "أشعر أنني أكثر ماركسية منهم". ونفهم تصريحه هذا لما نقرأ ما كتبه عن موقفه من ماركسية المناضلين حيث قال: "امتنعتُ - عن خطأ أو عن صواب، عن قناعة سياسية، ومن المحتمل أن يكون امتناعي أثرا للتخويف – عن انتقاد ماركسية الجبهة. سادت آنذاك حرب قاسية، أقسى من عمليات التخويف، وساد صراع قوي من أجل الهيمنة، وهذا ما جعل طيف الخيانة يلازم المؤسسات والمجادلات. في

هذا الجو الذي يمكن وصفه بالإرهابي نوعا ما، كنت أشعر بالخوف، لم أكن مرتاحا. كنت معاديا للستالينية، وكنتُ قد كونتُ تصورا عن الحزب الشيوعي وعن الاتحاد السوفييتي لا يتلاءم مع اليسار الديمقراطي الذي أردتُ دوما أن أظل مخلصا له. لكنني لم أرد التعبير عن اعتراضات سياسية، كان من الممكن أن يعتبر ذلك التعبير، لو قمت به، نوعا من التحفظ"(1).

يرى دانييل بنسعيد (1946-2010) أن صمت جاك دريدا كان غير مبرر، لأن مكانته الفلسفية كانت ستجعل للتعبير عن موقفه تأثيرا إيجابيا في النقاشات التي كانت تُخاض آنذاك. يقول بهذا الصدد: "من المؤسف أن التخويف فرض الصمت على هذه التحفظات. كان بإمكان التعبير عنها علنيا، في ذلك الوقت، من طرف فيلسوف كانت حظوته تزداد أهمية، أن يغير طبيعة النقاش الذي اتسم نسبيا بالغموض. بالإضافة إلى أن المقاومات التي جعلت دريدا يظل بعيدا عن الحزب الشيوعي لم تكن فقط مقاومات نظرية وإنما كانت سياسية أيضا"(2).

أما ميشيل فوكو (1926-1984)، فلقد هاجم "الماركسية الكاريكاتورية" التي كانت ثمرة للستالينية، فهو كان عضوا في الحزب الشيوعي الفرنسي حتى سنة 1953، وهذا ما جعل "علاقته النقدية بالماركسية وبالحزب الشيوعي تكون مركز أعماله"(3)، لكنه لم يهاجم ماركسية ماركس، ولقد

اختار فوكو ألا يذكر مراجعه التي يستلهمها، وهو ما صار عنده خاصية أسلوبية، وموقفا مضادا للنزعة الأكاديمية، وهو ما يعني أنه نصوصه مليئة بالحوار مع ماركس دون ذكره كمرجع، وهو أمر اعترف به هو نفسه، ويجب التذكير أن فوكو اهتم بمواضيع ظلت مهمشة من طرف الفلسفة قبل معالجته لها، كما كان يدافع نضاليا عن أفكاره.

إلا أن المسألة التي تمحور حولها نقد فوكو وجيل دولوز للماركسية هي: الديالكتيك. فالديالكتيك بالنسبة لفوكو إرث هيجلي، لا يمكن فصله عن الخطاطة الهيجلية المتمثلة في "الأطروحة ونقيضها"، إضافة إلى أنه إحالة على الماركسية الستالينية، ويفسر موقفه النقدي الرافض للديالكتيك استلهامه لنيتشه دون تبنيه لأطروحاته ومفاهيمه.

أما جيل دولوز (1925-1995) فقد قال بأكثر ما يمكن من الوضوح: "أعتقد أن غَـتاري وأنا بقينا ماركسيين"(4)، كما رفض دوما وحتى آخر حياته التنكر لماركس، وظل يتبنى ما يسميه بـ"الصيرورة الثورية"، وضرورة "مقاومة الحاضر"(5) ويمدح "الغضب ضد العصر". لكنه رفض الديالكتيك في إطار ارتكاز فلسفته على "الاختلاف كبديل للتناقض"، فهو ضد هيجل لكنه يواجه ماركس، لذلك قال عن ألتوسير "إنه يحرر ماركس من هيجل بشكل رائع". وقال بهذا الصدد: "إن ما أكرهه قبل كل شيء هو الهيجلية والديالكتيك"(6). ومن

الواضح أن دولوز يرتكز هو أيضا على فلسفة نيتشه التي أدخلت إلى فرنسا من طرف اشتراكيين يميلان للتيار الفوضوي أو الأناركي (هما هنري ألبير وشارل أنْدلر)، وذلك ضمن تقليد نقابي ثوري في نهاية القرن 19 وبداية القرن العشرين هَدف إلى اعتماد نيتشه لمراجعة الماركسية.

ترى "إيزابيل غارو" أن قراءات كل من ميشال فوكو وجيل دولوز ولويس ألتوسير لماركس هي "طرق لولوج ما يعتبر سياسة في الفلسفة"، وأنها "فرصة يواجه فيها هؤلاء المفكرون المسألة الشيوعية"، وهذا ما يجعل أعمالهم "تنتج تعريفا جديدا راديكاليا للالتزام الثقافي". بل إن أعمالهم "الأساسية والأصيلة" هي نتيجة لعلاقتهم الثابتة والأساسية بماركس والماركسية. فلما يساهم هؤلاء الفلاسفة الثلاثة "في جعل ماركس مرجعا نظريا من ضمن مراجع نظرية أخرى، فإنهم يحافظون على الأهمية النظرية والسياسية لهذا المرجع ويؤكدون على أهميته. إنهم يميزون أنفسهم باستمرار عنه، ويبنون في علاقة به، باعتباره إشارة مركزية، مسارهم. إن هذا الدمج ما بين الاعتراف وفقدان الثقة والحظوة، ما بين الإبقاء على مرجعية ماركس ومحوها، هو الخاصية الأكثر تميزا لأعمال فوكو ودولوز وألتوسير"(7).

ماركس المرجع:

استعملت كلمة "ماركسية" لأول مرة في نهاية سنة 1870. وكان ماركس وأنجلز يفضلان الحديث عن "الاشتراكية العقلانية النقدية" حسب مؤرخ الحركة الاشتراكية جورج هوبت Georges Haupt، وعن "الاشتراكية المادية النقدية" و"الاشتراكية العلمية" حسب نويل كاستانييز روجيو Noëlline Castagnez-Ruggiu. بل إن ماركس قال لبول لافارغ Paul Lafargue ، لما اطلع على ماركسية الحزب العمالي الفرنسي آنذاك:"إذا كانت هذه هي الماركسية فأنا لستُ ماركسيا".

إن التذكير بأهم مفاهيم وتصورات ماركس سيوضح غنى الإنتاج النظري الماركسي بعده، من خلال قراءات الورثة، كما سيوضح تعدد الرهانات بخصوص الفكر الاشتراكي وآفاقه، وسيساعد على طرح مسألة راهنية الماركسية.

اعتمد ماركس مفهوم الطبقة الاجتماعية، الذي كان يستعمله قبله آدم سميث وألكسيس طوكفيل وآخرون، اعتمادا على موقع الفرد ضمن علاقات الإنتاج وامتلاك الوعي الطبقي. واستعمل مفهوم الصراع الطبقي، الذي نجده أيضا مستعملا عند مؤرخين فرنسيين هما فرانسوا غيزو François Guizot وأوغيستان تييري Augustin Thierry، وحدد هو نفسه الجديد الذي أتى به في هذا المجال قائلا: "إن الجديد الذي أتيت به هو البرهنة على أن

وجود الطبقات لا يرتبط إلا بمراحل تاريخية محددة من تطور الإنتاج، وأن صراع الطبقات يقود حتما إلى ديكتاتورية البروليتاريا، وأن هذه الديكتاتورية نفسها لا تمثل إلا مرحلة انتقالية نحو تقويض كل الطبقات، في اتجاه مجتمع بدون طبقات"(8). ويخاض الصراع الطبقي في مجتمع يحدد – حسب ماركس- بنمط إنتاج معين الذي هو مجموع قوى الإنتاج (أي أدوات الإنتاج وقوى العمل وموضوع العمل) وعلاقات الإنتاج (العلاقات الاجتماعية بين الناس بناء على أنشطة الإنتاج). ولما تنتقل البروليتاريا من طبقة في ذاتها إلى طبقة من أجل ذاتها بفضل الوعي تصبح طبقة اجتماعية بالفعل.

تعتبر الماركسية نقدا للرأسمالية وإثباتا لضرورة انهيارها، لذلك تسود مفاهيم هامة بهذا الصدد: التراكم البدائي للرأسمال، التمييز بين العمل وقوة العمل، التمييز بين القيمة الاستعمالية والقيمة التبادلية، الأجور، الربح، فائض القيمة، الاستلاب، الديالكتيك، البنية التحتية، البنية الفوقية، الإيديولوجية، الدولة...

وتعتبر الإيديولوجية والدولة مفهومين مركزيين وإشكاليين تمحورت حولهما نقاشات ومجادلات عدة، كان من نتائجها تبلور خلافات وتيارات مختلفة بل ومتناقضة رغم إعلانها الانتماء لنفس المرجع.

وبخصوص الدولة، فلقد صاغ ماركس وأنجلز تصورا عن الدولة اتهم بافتقاره للنسقية. ولقد انصب النقاش حول كيفية اضمحلال الدولة، والمرحلة الانتقالية الفاصلة بين وجود الدولة، في المرحلة الانتقالية، واضمحلالها التام. يتحدث ماركس وأنجلز في "بيان الحزب الشيوعي" عن اشتراكية الدولة، أي عن دولة البروليتاريا التي تحتكر ملكية الأرض والأبناك والنقل... تحت قيادة الحزب، أي أن هناك ثنائية في السلطة: البروليتاريا والحزب، وهناك أيضا مفارقة وجود البروليتاريا كطبقة مسيطرة وحيدة ووجود الدولة.

لكن كمونة باريس دفعت ماركس لإعادة النظر في موقفه السابق من الدولة، وطرحت إشكالات مرتبطة بالمرحلة الانتقالية، لأن الكمونة كانت حسب تعبير ماركس نفسه "هي حكومة الطبقة العاملة"، أي أنها قامت بمهام الدولة التي حلت محلها بطريقة مختلفة جذريا، حيث أن دستور الكمونة هو تعبير عن صيغة لممارسة السلطة البروليتارية، وهي صيغة لم تكن دولتية، فالكمونة هدمت الدولة. إلا أن أنجلز اختلف عن ماركس في تقييمه للكمونة، لأنه يرى ضرورة المرحلة الانتقالية، أي ضرورة وجود دولة تمارس القمع على ما يسميه "بقايا الطبقة المسيطرة القديمة". فديكتاتورية البروليتاريا حسب أنجلز ستكون دولتية. نحن هنا أمام تصورين لمسألة المرحلة الانتقالية: تصور ماركس الذي يميل للديمقراطية المباشرة (شيوعية المجالس، أو

ديمقراطية الشركاء) وتصور أنجلز الذي يطرح مسألة القمع وبالتالي ضرورة الدولة الاشتراكية التي ستمارس ذلك القمع.

يستمر طرح الإشكال في "نقد برنامج غوتا": مبدئيا سيتم تدمير الدولة، لكنها ستوجد مؤقتا إبان مرحلة "التغيير الثوري"، وهي مرحلة تفصل ما بين المجتمع الرأسمالي والمجتمع الشيوعي، وتكون الدولة في هذه المرحلة هي الديكتاتورية الثورية للبروليتاريا.

وارتبطت إشكالات أخرى بمسألة الدولة منها: لماذا تكون البروليتاريا هي آخر طبقة اجتماعية تاريخيا؟ هل الطبقة العاملة طبقة كونية فعلا؟ وهل ستحرر الإنسانية بتحررها؟ هل ستكون الدولة في المرحلة الانتقالية تابعة للمجتمع أم تابعة للحزب؟ ألا يهدد وجود الدولة، حتى وإن كانت ثورية، وجود الحرية وممارستها؟ كيف يمكن القبول بصيغة "رأسمالية بدون رأسماليين"؟ ما الضامن على اضمحلال الدولة البروليتارية؟ ولماذا لا يجب هدمها من الأساس؟ ما هو أساس المرحلة الانتقالية نظريا وسياسيا واقتصاديا؟

الورثة:

من أبرز الورثة **لينين** (1870-1924). الذي ارتبط تطبيق الاشتراكية باسمه. وأثارت مواقفه النظرية والسياسية جدلا

كبيرا. وانقسم بشأنها الماركسيون إلى مؤيدين ومعارضين ومنددين ومبررين. تميز فكر لينين بجعل الحزب المحرك الأساسي لصراع الطبقات ولديكتاتورية البروليتاريا وللثورة، كما تميز بفكرة الطليعة الثورية التي ستنجز الثورة وتحمل الوعي الطبقي والنظرية الثورية إلى الشعب، وبفكرة دور المثقفين الثوريين حملة الوعي الذين عليهم الاندماج مع الحركة العمالية لتسليحها بالمعرفة، وبفكرة أهمية الفلاحين كقوة ثورية شريطة أن يكونوا مؤطرين بالطبقة العاملة وبالحزب، وفكرة المركزية الديمقراطية داخل الحزب التي تتجسد في "حرية النقاش ووحدة العمل"، ومن أبرز إسهاماته أطروحاته في "الدولة والثورة" التي يمكن تلخيصها في الأفكار التالية: الدولة هي نتاج تناقضات الطبقات التي لا يمكن التوفيق فيما بينها، تعمل الدولة بالعنف ولا ينفصل وجودها عن وجود قوات مسلحة متخصصة، الدولة وسيلة لاستغلال الطبقة المضطهدة، ستلغي البروليتاريا الدولة البرجوازية عبر ثورة عنيفة، كل دولة تفرض وجود بيروقراطية وجيش دائم، يتم إلغاء الدولة البروليتارية، التي لا يمكن الشك في ضرورتها المؤقتة، وفق نمط "الاضمحلال التدريجي والتلقائي"، تتميز المرحلة الانتقالية، التي هي الاشتراكية، بظهور ديمقراطية جديدة وديكتاتورية جديدة.

أما **تروتسكي** (1879-1940) فلقد دافع دوما عن إرث لينين، لكن فكره السياسي تميز بكونه نقيضا لفكر ستالين، وبالخصوص معارضته لأطروحة ستالين حول "بناء الاشتراكية في بلد واحد" بأطروحة "الثورة الدائمة" بناء على تأويله لفكر ماركس ولشروط قيام الثورة الاشتراكية في بلد متقدم صناعيا وفكرا وسياسيا، ووصفه الدولة السوفييتية "بالدولة العمالية البيروقراطية" أو "الدولة المنحطة"، إضافة إلى نقده العميق والصارم للبيروقراطية السوفييتية واصفا البيروقراطية "بالتشوه الديكتاتوري" للدولة البروليتارية، وتأسيسه للأممية الرابعة ونقده لسياسة الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية والشيوعية.

ونجد **بليخانوف** (1856-1918) على الطرف النقيض من لينين، حيث دافع على أن روسيا لن تتحقق فيها الاشتراكية إلا بعد تطور طويل المدى للرأسمالية، كما انتقد الشعبويين الذي تبنوا الإرهاب لإيقاظ وعي جماهير الفلاحين، وبين أن التاريخ لا يُصنع من طرف فئة قليلة من الأبطال وإنما يصنع من طرف طبقات اجتماعية تصارع وتناضل، كما ركز على أن للبروليتاريا إمكانية ثورية لا يملكها الفلاحون، واشتهر بشرحه للماركسية ولأسسها الفلسفية ولمنهجها.

وقادت **ألكسندرا كولونتاي** (1872-1952) المعارَضَة العمالية في الحزب البلشفي، وانتقدت سياسة قادة

الحزب القائمة على المركزية وعلى الاعتماد على "المتخصصين من الإداريين والاحترافيين البرجوازيين الصغار الباحثين عن النجاح المهني الشخصي"، وهو ما كان يعني في نظرها أن البلاشفة هم الذين وضعوا الأسس للبيروقراطية السوفييتية. ويمكن إجمال مواقفها ومواقف المعارضة العمالية التي كانت تنتمي إليها في ما يلي: يعاني الحزب والدولة وهيآت تدبير الاقتصاد من اختراقها من طرف عناصر دخيلة على البروليتاريا وعلى الفكر الاشتراكي، ضرورة تعويض الموظفين الدخلاء بالمناضلين المرتبطين بالجماهير، ضرورة دمقرطة الحياة الحزبية في جميع المجالات واعتماد مبدأ إقالة المسؤولين في جميع مستويات المسؤولية عند الضرورة، إعادة حق المساهمة في اتخاذ القرارات للجماهير، السماح للتيارات والمجموعات بالتشكل داخل الحزب، ضرورة تدبير العمال والنقابات لجميع البنيات الاقتصادية، ضرورة أن ينتخب العمال الإدارة الاقتصادية المسيرة للبلاد. كانت ضد هيمنة الدولة على الإنتاج، ومدافعة عن الصيغة الجماعية للإنتاج، كما كانت ضد تقليص الحريات السياسية وضد قمع المعارضين الثوريين المخالفين للبلاشفة، كما طالبت باستقلالية النقابات عن الحزب والدولة واتهمت لينين بالدفاع عن الرأسمالية.

أما الماركسي الهولندي **أنطون بانكوك** (1873-1960) فقد وصف الثورة الروسية بأنها ثورة برجوازية، وقال أن ظهور الجماهير في المسرح السياسي وتشكل المجالس والسوفييتات لم يكن إلا تعبيرا عن احتجاج جنيني للسلطة البرجوازية من طرف الفئات الشعبية، كما أن خنق الدولة للسلطة العمالية يترجم استحالة تطور الثورة الروسية خارج طبيعتها البرجوازية. وكان يعتقد أن حزب لينين كان حزبا مركزيا برجوازيا وبيروقراطيا تكنوقراطيا أكثر مما كان حزبا عماليا. لذلك ليست هناك قطيعة بين لينين وستالين. وكانت مادية لينين في نظره مادية برجوازية تقود إلى تصورات ابستمولوجية تضفي الشرعية على قادة يملكون معرفة تشكلت قبليا وفي انفصال عن نشاط الجماهير، وهو ما يجعل دور الجماهير ينحصر في التنفيذ.

ويعتبر مسار **كارل كورش** (1886-1961) متميزا، كما تعتبر مواقفه جريئة وهامة. فلقد رفض التحريفية والماركسية الميكانيكية، كما أولى اهتماما خاصا بمكانة الفلسفة في الماركسية، انتقد اللينينية وعبر عن موقفه من الماركسية في "أطروحاته العشر". تساءل عن أسباب فشل الاشتراكية، وهو التساؤل الذي قاده لانتقاد الماركسية من داخلها، أي انتقاد الحركة الاشتراكية من خلال الفلسفة، وتأويل الماركسية في تعارض واضح مع الجناح الأورثوذوكسي والجناح التحريفي.

لم تضفِ الماركسية على نفسها، حسب كورش، صفة الفلسفة، وإنما كانت تسمي نفسها بالاشتراكية العلمية، بينما كان ماركس وأنجلز يطلقان كلمة فلسفة على كل فلسفة بورجوازية، أي على الفلسفة ككل. وبما أن ماركس كان يحارب الفلسفة ويعمل على زوالها فإن مسألة علاقة الماركسية بالفلسفة تظل قائمة. أراد كورش إحياء المحتوى الثوري للماركسية. ولقد اهتم كورش أساسا بالأفكار الأصلية لماركس أكثر من اهتمامه بتطور فكره لاحقا، لأن المسألة الأساسية عند ماركس هي "تغيير المجتمع"، أما حيثيات وخصوصيات هذا التغيير فلم يتطرق لها ماركس، ولهذا السبب تكون الماركسية عند كورش صراعا طبقيا ونظرية انتقالية للمجتمع الرأسمالي، وهو ما يعني أيضا أن للماركسية طابعا تاريخيا يمنع سقوطها في الوثوقية.

لا بد أن تتحرر الماركسية حسب كورش من ادعائها احتكار الحركة الثورية، واعتبار ماركس أحد المؤسسين للاشتراكية إلى جانب الاشتراكيين الطوباويين، وإلى جانب منافسيه الكبار مثل أوغست بلانكي (1805-1881)، وبيير جوزيف برودون (1809-1865)، وميخائيل باكونين (1814-1876)...

رفض كورش المبالغة في اعتبار الدولة أداة حاسمة للثورة الاشتراكية، لأن التحويل البسيط للرأسمالية الخاصة التنافسية إلى احتكار وسائل الإنتاج والمراقبة الاجتماعية لا

تقود إلى تحقيق أي هدف ثوري. وكل ما فعله لينين في روسيا حول تحويل الماركسية من نظرية ثورية إلى إيديولوجية. كان كورش يرى أن الحزب ليس إلا مجرد وسيلة لتحقيق الديمقراطية المباشرة للمجالس العمالية. فالماركسية في نظره لم تكن لا علما ولا فلسفة، وإنما كانت وعيا نظريا بممارسة ثورية بروليتارية. إن الماركسية هي التعبير العام عن الحركة الثورية الموجودة، وحسب هذا التعريف فاللينينية ليست إلا "إيديولوجية ماركسية"، أي أنها لا تتناقض ضمنيا مع الكاوتسكية، وبالتالي فهي أيضا اتجاه تحريفي.

وبالرغم من أهمية مواقف وتصورات كارل كورش، فيمكن التساؤل عن الأسباب التي جعلت أهم حركة نظرية ماركسية في فرنسا آنذاك، أي الألتوسيرية، لم تعطه الكلمة، أي تجاهلته تجاهلا تاما؟

خلافا لكارل كورش، كان **لويس ألتوسير** (1918-1990) يريد أن يجعل من الماركسية نظرية علمية. وكان فكره مركز النقاشات الفلسفية والفكرية ما بين 1965 و1975 قبل الاهتمام بدريدا وفوكو ولاكان، ثم توارى في غياهب النسيان ليحتل هؤلاء المشهد الفكري. ولتحقيق ذلك كان يجب تحريرها من الإيديولوجية، فكان الحوار مع سبينوزا والتحليل النفسي واللسانيات. ولقد عبر بوضوح عن هذا "النزوع العلمي" حين قال سنة 1964: "كل نقاش بين

الشيوعيين هو دوما نقاش علمي، وعلى هذه الأرضية العلمية يرتكز التصور الماركسي اللينيني للنقد والنقد الذاتي"(10). ارتكز ألتوسير أيضا في قراءته لماركس على أطروحة "التطور اللاتمتكافئ للتناقضات" (وهي لماو تسي تونغ)، بهدف التركيز على أهمية البنيات الفوقية، وأهمية الفلسفة في الصراع الطبقي. وسيقوده منهجه إلى نبذ الديالكتيك والعمل بطريقته على إبراز حدود فكر ماركس.

كان انتقاده للستالينة محتشما جدا. فلم تكن بالنسبة له ثورة مضادة، وإنما كانت نتيجة "لانحراف نظري"، وكأنه يبرر نظريا الستالينية ويضفي الشرعية على أطروحة "بناء الاشتراكية في بلد واحد" التي هي حجز زاوية فكر ستالين. ورغم أنه اعتبر أن الثورة الصينية هي "النقد اليساري الصامت للستالينية"، فإن نتائج الثورة الثقافية (1973) لم تغير رأيه في الثورة الصينية. فحين ينتقد ألتوسير النزعة الاقتصادية، والنزعة التجريبية، والنزعة الدوغمائية... فإنه ينتقد الستالينية انطلاقا من هذه الانحرافات التي يمسها فلسفية، لأن أساسها نظري وليس سياسيا.

تمحورت أفكار ألتوسير حول ثلاثة قضايا: القطيعة الابستملولجية في فكر ماركس، نقد النزعة التاريخية، نقد النزعة الإنسانية. فلقد استلهم ألتوسير مفهوم القطيعة الابستمولوجية من غاستون باشلار ليطبقه على فكر

ماركس، وذلك للتمييز بين مرحلة إيديولوجية ومرحلة علمية في فكره. وحدد لحظة القطيعة ما بعد مخطوطات 1884، أي في سنة 1885، ليكون كتاب "الإيديولوجية الألمانية" لماركس وأنجلز هو بداية ماركس العلمي، ولكي يجد حلا لحدوث القطيعة على امتداد مدة زمنية طويلة، تحدث ألتوسير عن "القطيعة كسيرورة" وعن "القطيعة المستمرة" وعن "قطيعة تتخللها قطيعات لاحقة وقطيعات داخلية". طبق ألتوسير على الماركسية مفهوما معينا للعلمية احتاج لصياغته أن يعيد النظر في مفهموم العلم ذاته، معتمدا على فلسفة سبينوزا. وهو الأمر الذي دفعه إلى انتقاد (سنة 1966) "توجه روحي في الفلسفة" مثله في نظره برغسون وميرلوبونتي، ثم أعلن سنة 1976 أنه اعتمد نظريا لصياغة مواقفه على كافاييس وباشلار وكانغليم إضافة إلى سبينوزا وهيجل، كل ذلك لكي يصل إلى القول بأن ماركس اكتشف علما جديدا هو "المادية التاريخية". وأعاد النظر في موقفه من ميرلوبونتي ليقول عنه "إنه خلافا لسارتر الذي هو روائي فيلسوف، فإن ميرلوبونتي هو أكبر فيلسوف، بل آخر كبار الفلاسفة في فرنسا قبل العملاق دريدا"(11).

أما بخصوص النزعة الإنسانية، فلقد عمل على استبعاد ثلاثة مفاهيم من الماركسية وهي: الاستلاب، الذات والإنسان، وقدم بديلا عنها تمثل في "سيرورة بدون ذات". وأصبحت هذه العبارة البديلة مركزية في فكره. وانطلاقا من

تعريفه الجديد للإيديولوجية (كعلاقة خيالية للأفراد بظروف وجودهم الواقعية، أي الكيفية التي يعيش من خلالها الأفراد علاقتهم بشروط وجودهم، أي أن الأمر في الإيديولوجية لا يتعلق فقط ظروف وجود الناس وإنما يتعلق أيضا بعلاقة الأفراد بشروط وجودهم)، رفض احتلال الذات لأية مكانة في الماركسية. لذلك "فالسيرورة بدون ذات" ترفض الغائية المتمثلة في الزوج: أصل/نهاية. لكن يجب التمييز بين القول بعدة وجود ذات للتاريخ، ووجود ذوات في التاريخ.

ألقى ألتوسير بالنزعة الإنسانية في حقل الإيديولوجية، التي تخفي العلاقة الواقعية مع الواقع بسبب طبيعتها الخيالية. لكن للنزعة الإنسانية وظيفة إيجابية، بالرغم من وظيفتها السلبية التي تتمثل في إخفاء حقيقة الواقع. وتتمثل إيجابيتها في فعاليتها العملية. لذلك فمعاداتها نظريا لا تؤدي إلى معاداتها عمليا.

خلافا لكارل كورش، يرى ألتوسير أن مجال الفلسفة الماركسية هو العلوم بغية فرز ما هو علمي عما هو إيديولوجي، فهي تخوض صراعا نظريا هو طريقتها في ممارسة السياسة، أي أن الفلسفة تمثل الصراع الطبقي على المستوى النظري، فهي تساعد الشعب على معرفة حقيقة التاريخ حتى وهي لا تتدخل إلا في مجال العلوم دفاعا عن المادية الماركسية، وتحريرا للعلم من الإيديولوجية.

لكنها تهتم أيضا بالإيديولوجيات العملية، وبتكون الإيديولوجيات المسيطرة في إطار صراع طبقي إيديولوجي، وبما أن الإيديولوجية مكون لا مناص منه لأي مجتمع، فبإمكان الفلسفة أن تعمل لتقلب موازين الصراع الطبقي إيديولوجيا، وذلك بجعل الإيديولوجية المُسيطَر عَليها إيديولوجية مُسيطِرة. وبالرغم من هذه الوظيفة فإن الفلسفة في نظر ألتوسير تتدخل كفكر نقدي أكثر منها كفلسفة كاملة التكوين: أي أن الماركسية هي إستراتيجية فلسفية أكثر منها فلسفة جاهزة.

لكن قراءته الجديدة لأعمال ماركس ارتكزت بالخصوص على أعمال فرويد عبر جاك لاكان. ففي كتابه الأساسي "دفاعا عن ماركس" يحضر فكر فرويد حتى وإن لم يذكر بالإسم، ففي هذا الكتاب نجد فكرة القطيعة، ونقد النزعة الاقتصادية الميكانيكية ومفهوم التحديد التضافري (الذي هو مفهوم فرويدي المقصود منه تعدد العوامل المحددة لظاهرة واحدة). كما أن نقده للذات يجد مرجعه عند فرويد: فالذات الواقعية، أي الفرد لا يتخذ صيغة الأنا المتمركز حول الوعي، فالذات الإنسانية لا مركز لها، إنها تتكون من بنية لا مركز لها، وبالتالي فالنزعة الإنسانية وحرية الفرد وحرية الاختيار والمسؤولية والنزعة الإرادية... كلها تعود للإيديولوجيا، أي وجود بنيات لاواعية هي التي تحدد الذات.

إن نصوص ماركس الشاب التي حاربها ألتوسير، وخصوصا مخطوطات 1844، وأراد حجبها بمفهوم القطيعة الابستمولوجية، هي النصوص التي حظيت باهتمام كبير من طرف العديد من المفكرين. فهي التي مكنت من التقاء كل من سارتر (1905-1980) وميرلوبونتي (1908-1961) بالماركسية، وهي التي نهل منها مفكرون ماركسيون، مثل لوكاش (1885-1971) وكورش (1886-1961) وماركوز (1898-1979) ولوفيفر (1901-1991)، الأدوات التي مكنتهم من إعادة الاعتبار للذات والاستلاب في الفكر الماركسي.

كان ألتوسير مطلعا على الكيفية التي استعمل من خلالها ماركسيون ألمان مؤلفات ماركس الشاب ضد لينين من أجل صياغة "تصور أخلاقي للماركسية". فإسهام ألتوسير تم في سياق فلسفي هيمن عليه إشكال علاقة ماركس بهيجل الذي انخرط في التفكير فيه لوفيفر وغارودي (1913-2012) ودوزانتي (1914-2002)، إضافة إلى المدافعين عن هيجل مثل جون وول (1888-1974) وجون هيبوليت (1907-1968) وألكساندر كوجيف (1902-1968) وغاستون فيسار (1897-1978) ومارسيل رينيي (1900-1998).

وبالرغم من تجاهل ألتوسير لهذا النقاش في كتابه "دفاعا عن ماركس"، فلقد عبر عن موقفه منه بحدة لافتة للنظر سنة 1950 في مجلة (La nouvelle critique) قائلا: "إن الدفاع عن هيجل يستهدف في الواقع مراجعة ماركس، أي

تكوين ماركس جديد لإثبات خطأ الشيوعيين (...) وتعتبر العودة لهيجل نزعة تحريفية ذات طبيعة فاشستية".

لقد عبر جاك رانسيير عن المنزلقات النظرية لقراءة ألتوسير الجديدة لماركس قائلا: "كانت الماركسية التي تعلمناها في مدرسة ألتوسير هي فلسفة الخضوع التي تبعدنا كل مبادئها عن حركة التمرد التي تزعزع النظام البرجوازي (...) يمكن لماركس أن يخطئ ليأتي ألتوسير ليصحح خطأه لأنه هو على صواب، لكنه لا يمكنه القيام بذلك دون مواجهة ماركس بشكل واضح. لكن التاريخ علمه أن عليه أن يتجنب ماركس، لأن مواجهته قد تثير ما لا يمكن تحمُله، وهذا ما يفسر هروبه إلى الأمام. فمن الأفضل له أن يتحدث عن غرامشي عوض الحديث عن ماركس، والحديث عن لوكاش عوض الحديث عن غرامشي، والحديث عن غارودي عوض الحديث عن لوكاش، والحديث عن جون لويس عوض الحديث عن غارودي: إنه يهرب إلى الأمام، إلى أبعد ما يمكن عن المسألة التالية: أين نحن من ماركس؟ أي أين نحن –في آخر المطاف- من الثورة؟"(12).

لم يقتنع جاك دريدا قط بفكرة ألتوسير عن القطيعة ما بين ماركس الإيديولوجي وماركس العلمي. واعتبر خطابه الفلسفي نزعة علمية جديدة ونزعة وضعية جديدة. كما لم يتفق معه في قوله بأن الإيديولوجية لا تاريخ لها، ويقول مدققا بهذا الصدد أن هدم مفهوم ميتافيزيقي عن التاريخ لا

يعني عدم وجود التاريخ. فبالرغم من كل شيء حظي فكر ألتوسير بمتابعة واهتمام أهم فلاسفة فرنسا المعاصرين.

ويمكن أن نستنتج من هذه المعطيات عن بعض ورثة ماركس أهمية الصراعات والرهانات واختلاف قراءة المرجع الأصلي، مما يوضح أن الأمر لا يتعلق بعلم وقوانينه، وإنما بفلسفة وإيديولوجية وممارسة ثورية سياسية ونقابية، إضافة إلى اختلاف المجتمعات والظرفيات والمرجعيات الفلسفية والثقافية، ولعل امتلاك تصور مكتمل إلى حد ما عن اختلافات ورثة ماركس لن يتم إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار ورثة آخرين لهم مكانة هامة وخاصة في تاريخ الفكر الماركسي والنضال الثوري مثل: كاوتسكي (1854-1938)، روزا لوكسمبورغ (1871-1919)، إرنست بلوخ (1885-1977)، غرامشي (1891-1937)، أنطونيو لابريولا (1843-1904)، إدوارد برنشتين (1850-1932)، أوتو باور (1881-1938)(9)، الماركسي الأمريكي دانييل دو ليون Daniel De Léon (1852-1914)، الماركسي الياباني سين كاتاياما Sen Katayama (1859-1953)، الماركسي الأندونيسي ذو الأصل الهولندي هنك سنيفلييت Henk Sneevliet (1883-1942)...

وكل هذه الإسهامات النظرية، والمجادلات السياسية والانتقادات باسم العلم أو الفلسفة أو الإيديولوجية أو التاريخ أو العدالة هي انتقادات تطرح دوما مسألة راهنية

فكر ماركس. فكل مفكر ماركسي، وكل تيار ماركسي، وكل عملية انشقاق عن حزب سياسي ينتمي للماركسية، وكل مراجعة لفكر ماركس... كل هذه العمليات المختلفة هي أدلة على راهنية فكر ماركس وعلى العمل الدؤوب الذي ما انفك يُنجز هنا وهناك، وفي الظروف الصعبة والعادية، إبان الحروب والسلم، لملائمة هذا الفكر مع الإشكالات والوقائع الجديدة، وللإجابة على الأسئلة التي تطرحا الممارسة والفشل في التطبيق وفي الإنتاج النظري. فأي فكر عرف هذا الزخم من المراجعات والنقد والانشقاقات والحروب الطاحنة والانتصارات الجزئية والأحلام الإنسانية الكبرى التي تسمى طوباوية مثل فكر ماركس؟

ماركس الآن وغدا:

لا تعني راهنية ماركس الاهتمام به أكاديميا، فحسب كارل كورش: "لا تمثل الماركسية بالنسبة لأساتذة الفلسفة في أحسن الحالات إلا قسما فرعيا وثانويا في فصل عن تاريخ الفلسفة في القرن العشرين، يتم الاطلاع عليه تحت عنوان فرعي هو "تفكك المدرسة الهيجلية". والغريب أن الماركسيين أنفسهم، ولأسباب مختلفة عن تلك التي تقف وراء تصرف أساتذة الفلسفة غير الماركسيين، لا يعيرون أية قيمة للمكون الفلسفي لنظريتهم"(13).

إن راهنية ماركس تنتشر كالهواء في سماء عصرنا من خلال تحويل تصورات ماركس إلى قضايا مرتبطة به ومنفصلة عنه في نفس الوقت، ومن بين هذه القضايا: استغلال الإنسان للإنسان، المنافسة المتوحشة، الجيش الاحتياطي للعمال، مراكمة فائض القيمة، صراع الطبقات، زيف الإيديولوجية، أزمات وتناقضات الرأسمالية، ديكتاتورية البروليتاريا، عدم حتمية الدولة...

لقد مكن ماركس جميع ماركسيي العالم، من أن يصبحوا حركة اجتماعية تاريخية. لقد صار ماركس نوعا من الأبوة الإيديولوجية التي تجاوزته هو شخصيا لتذوب في حركة اجتماعية ونقابية وثقافية أفقها العدالة الاجتماعية. ومن جهة أخرى، لا تزال الماركسية هي النقد الوحيد المقنع الذي عرفه التاريخ لحد الآن للرأسمالية. وإذا أضفنا إلى كل ذلك التجديد الماركسي المستمر نظريا وسياسيا، فسنستنتج أن فكر ماركس يكتسب غناه من تجاوزه المستمر دون القطع معه، لأنه يتضمن ما هو أساسي للتصدي للرأسمالية.

هوامش:

1)

J. Derrida, Friendship politics, in Althusserian legacy, verso, Londres, 1989

(2

Daniel Bensaid, Althusser et le mystère de la rencontre, www.marxau21.fr

(3

Isabelle Garo, L'infâme dialectique: le rejet de la dialectique dans la philosophie française de la seconde moitié du 20e siècle, www.marxau21.fr

(4

Gilles Deleuze, Pourparlers. Paris : Éd. de Minuit, 1990, p. 7 et p. 232.

(5

Gilles Deleuze & Félix Guattari, Qu'est-ce que la philosophie ?. Paris : Éd. de Minuit, 1991, p. 104.

(6

Gilles Deleuze, Pourparlers. Paris : Éd. de Minuit, 1990, p. 14

7) أنظر مقدمة كتاب إزابيل غارو:

Isabelle Garo, Foucault, Deleuze, Althusser et Marx, 2011, Démopolis.

(8

ماركس، رسالة إلى J. Weydemeyer. بتاريخ 05 مارس 1852.

(9

يعتبر أتو باور Otto Bauer أحد ابرز الشخصيات الماركسية النمساوية إلى جانب ماكس أدلر وفيكتور أدلر وكارل رينر ورودلف هيلفردنغ. ولقد أثرت هذه الماركسية المتميزة على الشيوعية الأوروبية واليسار الجديد

الأوربي، واشتهر أوتو باور بأطروحة "المبدأ الشخصي" الذي هو وسيلة لجمع أعضاء أمة واحدة مشتتين جغرافيا اعتمادا على التعاون بين الأشخاص وليس من خلال هيآت إقليمية، أي فصل مفهوم الأمة عن مفهوم الأرض والإقليم، جاعلا من الأمة رابطة غير إقليمية، ولقد تم تبني هذا "المبدأ الشخصي الماركسي" من طرف حركات سياسية مثل اليهود اليساريين المؤيدين لحل الدولة الواحدة في فلسطين والاتحاد الديمقراطي للمجريين الرومان.

(10

Louis Althusser, Problèmes étudiants, in La nouvelle critique, janvier, 1964

(11

Louis Althusser, L'avenir dure longtemps, p 527.

(12

Jacques Rancière, La leçon, d'Althusser.

(13

Karl Korsch, Marxisme et philosophie, Ed. Allia, 2012, p. 15-16.

نقدُ الصّهيونية وتمْييزِها عنْ اليَهوديّة

(حوارٌ ما بين أبراهامْ السّرفاتي
وإيمانويل لِيفينْ)

1. **تقديم لإيمانويل ليفين:**

إن معادة الصهيونية هي بدون شك التقليد السياسي التحرري الأكثر تعرضا للتشويه والأكثر انتقادا في أيامنا هذه، ويتم ذلك من خلال استعمال لغة تزعم أنها ثورية. في هذا النص المكثف جدا حاورَ أبراهام السرفاتي أحدَ أتباع التعاليم القبّالية والمعادي للصهيونية والذي هو إيمانويل ليفين Emmanuel Lévyne. وخلافا للأفكار المسبقة، يبين السرفاتي أن بناء فلسطين ديمقراطية ولائكية، على حدود 1948، لا يؤدي بالمرة إلى إنكار التقاليد الثقافية والدينية سواء اليهودية منها أو الإسلامية. وعلى العكس من ذلك، يؤكد أبراهام السرفاتي، الفخور بإرثه اليهودي والعربي، أن الثورة الاشتراكية في الشرق الأوسط تتطلب تملكا جديدا للموروث المتمركز حول فكر الخلاص، وللموروث الثقافي والأخلاقي المشترك بين أهل الديانات

الكتابية. وعلى عكس منظورٍ ماركسيٍ لينينيٍ ضيق الأفق، يرى أبراهام السرفاتي في النضال الفلسطيني انعتاقا ممكنا للقيم الجماعية والدينية، تلك القيم التي قد تستنهض حركة عمالية غربية غارقة في حسابات أنانية. هذه المساهمة التي لا تقدر بثمن هي شهادة متميزة عن المحاولات اليسارية العربية الهادفة للتفكير في لاهوت للتحرير يجمع ما بين مقاومة الإمبريالية وهيمنة عقائد متعددة.

2. رسالة من إيمانويل ليفين إلى أبراهام السرفاتي:

أخي وصديقي العزيز،
أتأسف لكوني لم ألتقي بكم، لكن رسالتكم أمتعني. كنت أود ربط الصلة بيهود من البلدان العربية منذ مدة طويلة. وأتساءل: لماذا لم يتفاعلوا مع ما قمت به بالرغم من انسجامه التام مع مصالحهم المباشرة، على عكس ما يقوم به الصهاينة الذين يريدون هلاكهم ويعملون على تدمير جماعاتهم التي كانت مزدهرة؟ ينبغي التحلي بالكثير من الصبر، وسوف يتحقق كل ما نتبناه، خاصة بالنسبة لنا نحن الذين لازلنا نؤمن بالمُخلص. وفي هذا الاعتقاد يكمن الإيمان اليهودي. إن كل الوثائق التي ستتمكنون من

إرسالها إليّ هي وثائق مهمة بالنسبة لي، وسوف أعمل على نشرها بين أصدقائنا.

إن تصوركم عن فلسطين عربية موحدة وديمقراطية هو تصور يهمّني كثيرا. أرى أيضا أن اليهود والعرب مجبرون على التعاون لبلورة تصور اشتراكي أكثر إنسانية وروحانية. فلا حاجة لإسرائيل بالمرة بدولة لها وحدها، بل عليها أن تعمل على تخصيب دول أخرى حتى ولو تم ذلك انطلاقا من وجودها فقد. ولكن مادامت هناك دولة يهودية في فلسطين، سيصعب علينا كسب ثقة العرب الذين ينظرون إلينا كمشتبه فيهم. لهذا السبب علينا أولا أن نوجه نضالنا ضد الأيديولوجية الصهيونية، وإذا ما حالفنا النجاح سيتم تجنب سفك الكثير من الدم العربي واليهودي. إن الدولة الصهيونية هي قنبلة قد تقتلنا جميعا بانفجارها. لذلك علينا إبطال مفعولها، وذلك بالقول لجماهير اليهود إن الصهيونية تعمل ضد مصالحهم وإنها تستعملهم كأدوات في الحرب لخدمة مصالح الرأسمالية. إذا نجحنا نحن اليهود في القضاء على دولتنا، فسنقدم مثالا رائعا للعالم، سوف نبدو كشعب ثوري نموذجي. إن مهمتنا هي البرهنة على أن بإمكان أمة أن تتحرر من الدولة ومن المجال الترابي ومن التبعية...

3. رسالة من أبراهام السرفاتي إلى إيمانويل ليفين:

أخي العزيز،

بالرغم من أننا لسنا متفقين على جميع الأمور، فإننا أخوان في النضال ضد الصهيونية، وأخوان في تجربة القلق العميق الذي فجرته حرب يونيو 1967 فينا، حين نرى (نحن المؤمنين وغير المؤمنين) الدين اليهودي الذي لا نستطيع فصله عن القيم التي أمدّ بها الإنسانية، والتي تشبعنا بها، يغرق في هذا العمل الشنيع الذي هو الصهيونية. وأضيف أن صرخة وقلق هذا اليهودي الجزائري، روجي بنحاييم، المقتلع من جذوره، أثرا فيّ بالغ التأثير إلى حدّ أنني بنيت حياتي من نفس حلم الأخوة الإنسانية، هنا، في هذا العالم العربي، الذي يظل عالم روجي بنحاييم بالرغم من منفاه.

علينا جميعا، نحن اليهود المعادين للصهيونية في العالم، أن نساهم بفعالية في الفعل الثوري ضد الدولة الصهيونية، ودعم جهد الثوريين العرب، انطلاقا من ذلك، حتى لا نسقط في فخ العرقية. علينا إن نعمل لكي يكون هذا الفعل ثوريا بالفعل، ومن أجل العالم العربي، وكمساهمة في نضال الإنسانية جمعاء لاقتلاع كل أشكال القمع الموروثة عبر التاريخ والتي بلغت أوجها في احتضار الامبريالية.

سوف تتضح الحقيقة المضادة للصهيونية، كما قلتم أنتم ذلك، بالنسبة لليهود الذين ضللتهم الصهيونية وذلك من

خلال المواجهة الحرة وبالارتكاز على الممارسة العملية لكل الذين سيصلون –عبر طرق متنوعة- للوعي بالجريمة المرتكبة ضد اليهودية وضد الإنسانية، هذه الجريمة التي تسمى: الصهيونية.

ولهذا السبب، عليّ أن استبعد بعضا من انتقاداتهم للاشتراكية، وأن أطور، استجابة لطلبكم، مفهوم فلسطين العلمانية الموحدة والديمقراطية، والتي هي جزء من العالم العربي.

1. هل بإمكاننا، فيما يتعلق بالاشتراكية، أن نضع في نفس المستوى التحقيق الملموس للاشتراكية في العالم منذ خمسين سنة، والذي كان العامل الأساسي الذي أدى إلى سحق النازية، وعالم الامبريالية المتعفن؟ إن المساواة بين الأمرين يعني تبني موقف الصهاينة الذين ينظمون اليوم، في صيغة ضخمة، عملة معادية للسوفييت بخصوص ما يسمونه "يهود الصمت"، كما يدعون لعقد مؤتمر لهذا الغرض في لندن.

مع أن الاشتراكية هي التي وضعت حدا "للبوغروم" (المذبحة المدبرة ضد اليهود) في روسيا، بالإضافة إلى تضحيات الشعوب في الاتحاد السوفييتي التي كانت هي العامل الأساسي في سحق النازية. إذا كانت عملية القضاء على العنصرية داخل البنيات الثقافية، التي ترسخت فيها، لا تتم إلا ببطء، فإن المراقبين الموضوعيين يذكرون

التغييرات الراديكالية المعروفة في هذا المستوى في الاتحاد السوفييتي، على غرار التحقيق الذي نشرته جريدة لوموند (وهي الجريدة التي لم تكن تفوتُ أية فرصة للتعبير عن معاداتها للاتحاد السوفييتي) حول الجمهوريات المسلمة في آسيا الوسطى، وتطورها الديمقراطي والثقافي، واختفاء كل تمييز عرقي وديني، وتحقيق الأخوة ما بين اليهود والمسلمين.

يعتبر اضمحلال الدولة -المرتبط بالتغييرات العميقة للبنيات الثقافية المتجذرة بسبب سيادة الظلم لقرون عديدة، وهي تغييرات تمت بفضل الثورة السوفييتية التي أضافت إليها الثورة الصينية ونضال الفيتناميين وجهود الكوبيين إسهامات جديدة- هدفا تم تحقيقه من طرف عدة أجيال. ويتطلب تحقيق هذا الهدف اقتلاع البنيات الاقتصادية المسؤولة عن استغلال الإنسان للإنسان، كما يتطلب قبل كل شيء تصفية الامبريالية على الصعيد العالمي لأنها تعتبر سببا دائما للاعتداء والرشوة.

لم يعد بإمكاننا، فيما يخصنا، في خضم النضال ضد الصهيونية، أن نتجاهل الروابط ما بين الصهيونية والامبريالية، ولا أن نتجاهل ضرورة وحدة النضال ضد الصهيونية والامبريالية مع قوى الاشتراكية في العالم.

علينا أن نحتفظ، في هذه الوحدة، باستقلال أحكامنا وتصرفاتنا. وبالفعل، فالعمل الثوري الذي يمكن إنجازه في

العالم العربي بمشاركة اليهود المعادين للصهيونية يمكن أن يكون مثالا للعالم في ما يتعلق باقتلاع الصهيونية ومساهمة متميزة وهامة في بناء مجتمع عادل يضمن التحرر الإنساني. لهذا السبب علينا أن نعمق معنى هذه المساهمة باعتبارنا يهودا معاديين للصهيونية.

2. أعتقد من جهتي أن هذه المساهمة في الثورة في العالم العربي، وفي الثورة العربية بشكل خاص لا نقوم بها "كشعب يهودي". إن هذه المساهمة في الثورة العربية هي من صلب تجاوزنا لذاتنا، ليس فقط "كدولة يهودية"، ولكن أيضا تجاوز تصورنا عن أنفسنا كجماعة ثقافية أعلى مرتبة من الجماعات الأخرى وأكثرها أهمية على الإطلاق. إن هذا التصور الذي يقود إلى مفهوم "الشعب اليهودي" الذي يتغذى من الصهيونية، هذا التصور مضاد للتطور التاريخي للإنسانية.

إن الإسهام المتميز بدون شك "للمسألة اليهودية" في العالم الأوروبي، وفي العالم العربي اليوم بشكل حاد، يتمثل في أن هذه المسالة اليهودية لا يمكن تجاوزها وحلها إلا من خلال تجاوز مجموع التناقضات الاجتماعية التي تعتبر سببا لاستلاب الإنسان.

ليست المرحلة التاريخية التي نعيشها اليوم، كما يزعم البعض ذلك، مرحلة محوَ الخصوصيات الوطنية، ولكنها مرحلة انعتاقها داخل المجموعات الوطنية والتي سوف تعمل على

تفجير أغلال الرأسمالية والامبريالية، وتمهد الطريق نحو بناء عالم أخوي من خلال حوار على أساس المساواة ما بين مختلف الثقافات.

إن إسهامنا المتميز، كيهود، في بناء هذه المجموعات الوطنية على أسس ثورية، لا يتم باعتبارنا "شعبا يهوديا" يوجد خارج هذه الجماعات ويرتبط بها ارتباطا خارجيا، وإنما يتم بقبولنا للخاصيتين المميزتين لنا وهما: خاصية الوطنية وخاصية الانتماء لليهودية، وذلك بدمج الخاصية الثانية في الأولى من خلال المساهمة الفعالة في هذا البناء. ولا يعتبرُ هذا الاندماج محواً وإنما يعتبرُ "تجديدا لقيمنا التقليدية الأساسية والتعبير عنها مجددا بشكل حديث".

إن ما يسمح بوحدة هذا العالم الإنساني الذي ينبغي بناؤه –والذي تبرز مقدماته في النضالات الثورية- هو انعتاق الناس في تنوع مكوناتهم الوطنية. ينبغي على اليهودية، لكي تظل وفية لقيمها الأساسية، أن تضمن إمكانية التعبير عنها في خضم تنوع المكونات الوطنية. إن إحدى مميزات الثورة العربية هي مطالبتها لليهودية بأن تعبر عن نفسها ضمن تنوع المكونات الوطنية. نجدُ الحل الخاطئ "للمسألة اليهودية" معبرا عنه في عبارة "الدولة السياسية" وهو ما أدانه ماركس في الدراسة التي خصصها لهذه المسألة. هده الدولة هي دولة الديمقراطية البرجوازية، حيث يتعرض فيها الإنسان للتفتيت. تعبرُ القيم الأساسية لليهودية، مثل

القيم الأساسية للإسلام، عن تطلع المجتمعات القروية المكونة من جماعات تتميز عن بعضها البعض أى انعتاق الإنسان الشامل.

لقد عمل المجتمع الأوربي الذي تعرض لتأثير الرأسمالية العميق (في ما نسميه الثقافة الغربية) على إضعاف هذه الماهية التي هي الثقافة.

وهذا ما أدانه ماركس بالتحديد لما تحدث عن "اليهودي الواقعي" في المجتمع الرأسمالي الأوروبي في تعارض مع "يهودي الشبات" (أي يهودي السبت: يوم الراحة والعادة، والامتناع عن القيام بأية أنشطة) في الجزء الثاني من كتابه "المسألة اليهودية"، هذا الكتاب الذي اعتبره بعض الكتاب، سيئي النية، معاديا للسامية(1). وإذا كان ينبغي نقد تحريف وتشويه الدين، الذي يقوم به مستغلو الإنسانية، فإنه سيكون علينا أن نتبنى تصورا خاطئا عن الاشتراكية، نعتق بموجبه أن علينا محاربة ما أسماه ماركس "روح أزمنة بدون روح" (أي الدين) لكي نحقق انعتاق الإنسانية، بينما يقول ماركس، بشكل محدد، في نفس هذه الدراسة: "لا يمكن للروح الدينية أن تصبح دنيوية واقعيا. فما هي الروح الدينية إن لم تكن سوى الشكل غير الدنيوي لتطور الذهن البشري، فالروح الدينية لن تتحقق إلا إذا عبرّت درجة تطور الذهن البشري عن نفسها وتشكلت في صيغتها الدنيوية،

علما أن الروح الدينية هي تعبير عن درجة تطور الذهن البشري".

أين يختلف ما قاله ماركس عن المثال الأعلى اليهودي أو الإسلامي المتعلق ببناء مملكة الله فوق هذه الأرض؟

لقد كتب س.غواتن عن الماضي اليهودي الإسلامي المشترك قائلا: "لقد تكون الإسلام من نفس المكونات التي تكونت منها اليهودية. إنه، بمعنى ما، عملية إذابة وتطوير لليهودية، تماما مثلما هي اللغة العربية مشابهة كثيرا للغة العبرانية. لقد تمكنت اليهودية، نتيجة لذلك، من النهل من هذه الحضارة المحيطة بها، والحفاظ في نفس الوقت على استقلالها وكيانها المتكامل بسهولة أكبر مقارنة مع وجودها في الحضارة الهللينية في الإسكندرية أو في العالم الحديث ... لم تجد اليهودية نفسها أبدا في علاقات وثيقة وفي حالة تعايش خصبة جدا كما كانت عليه حضارة الإسلام العربي"(2).

كان هذا الماضي لا يزال حيا في الحياة اليومية للجماعات اليهودية في العالم العربي إلى حدود تفجر هذه الجماعات تحت تأثير الصهيونية. أيّ رمز أفضل من رمز حفل ميمونة والذي يعتبر حفل صداقة وأخوة يهودية إسلامية في المغرب منذ القديم؟ ولازال المسلمون هم الذين يقدمون لإخوانهم اليهود الأرغفة الأولى التي تدل على نهاية عبد الفصح اليهودي. ويعتبر هذا التصرف الشعبي تعبيرا أقوى من أية

دراسة عن التعبير الجديد الملموس عن محتوى الأخوة الإنسانية التوراتية العائدة لبلد كنعان ورفض الإنسان لجذوره القبلية والعرقية.

هذا ما يعنيه بالنسبة لي –وأنا مقتنع بذلك- وبالنسبة للثوريين العرب الواعين، كيفما كان معتقدهم الديني، هدف "دولة فلسطين المستقلة الديمقراطية" والتي يتمتع جميع مواطنيها، كيفما كان معتقدهم الديني، بحقوق متساوية"، وعلى هذه "الدولة""، التي هي جزء من الوطن العربي "أن تساهم بفعالية في بناء مجتمع عربي تقدمي موحد" (برنامج فتح).

لقد أوضحتُ في الجزء الثاني من دراستي حول "الثقافة والتقدم العلمي"، أن تصورا مثل هذا، يعيد الحياة للمحتوى الإنساني والتقدمي للثقافة الوطنية لكي يجعلها قادرة على بناء المستقبل، هذا التصور يقبل أكثر من أي تصور آخر بالتقدم، العلمي، خلافا لنقيضه الذي هو تصور العالم الرأسمالي و"ثقافته الغربية" المنحطة.

أخي العزيز،

لقد أطلت كثيرا. أرفق هذه الرسالة ببعض الوثائق حول النضال المعادي للصهيونية بالمغرب. سوف تلاحظون أنه إلى حدود مرحلة قريبة، ظل هذا النضال مشتتا وبدون استمرارية. ولقد قمت بتحليل بعض الأسباب المفسرة لذلك في دراسة سوف تنشر بعد بضعة أشهر(3). من

المؤكد أن هذا النضال لا ينبغي أن يتوقفن بل عليه أن يستمر، لأننا نعتمد اليوم على هدف تم توضيحه بالشكل الكافي بالنسبة للعالم العربي.

أخي العزيز،

إن الأمر لا يتعلق إلا ببداية نضال مشترك. علينا هنا أن ننظم المعلومة المعادية للصهيونية داخل جماعة يهودية تفقد أكثر فأكثر خصائصها المميزة لشخصيتها بسبب تأثيرات الكلونيالية والصهيونية معا. إن معرفة الجهود المبذولة في هذا المجال، مثل جهودكم، وجهود جميع اليهود المعادي للصهيونية في العالم هو عنصر أساسي لجهدنا.

هوامش:

1) أوضح أبراهام السرفاتي موقفه من هذه المسألة بتفصيل في رسالة أخرى.

2) س. غواتن: يهود وعرب، منشورات مينوي (دراسة لافتة للنظر حول الماضي المشترك لليهود والعرب بالرغم من خلاصة تتميز بالاستلاب تجاه الغرب).

3) نشرت هذه الدراسة في العدد الخاص لمجلة "أنفاس" بالفرنسية (Souffles) تحت عنوان "من أجل الثورة الفلسطينية: اليهودية والصهيونية بالمغرب"، وفي نفس هذا العدد، نشرت دراسة أخرى لأبراهام السرفاتي تحت عنوان: "هل دولة إسرائيل أمة؟" وفي حاشية بيوغرافية تمت الإشارة إلى أن أبراهام السرفاتي ازداد سنة 1926

بالدار البيضاء، مهندس معادن، أستاذ بالمدرسة المحمدية للمهندسين بالرباط، يناضل في صفوف الحركة الوطنية المغربية منذ سنة 1944.
(**المرجع**: نشر هذا الحوار سنة 1970 في مجلة "تسيدك" Tsedek، العدد 101، ص: 7-12).